

محمود عيسى
مطر الغياب
صفحات من أيام الملاحقة والاعتقال والسجن
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
دار الخيال

مطر الغياب

مطر الغياب

محمود عيسى

بناية يعقوبيان بلوك B طابق 3 شارع الكويت
المنارة بيروت
لبنان تلفاكس: 00961174011O

www.darelkhayal.com

التنفيذ الفني:

الطبعة الأولى 2016

مطر الغياب

محمود عيسى

الإهداء

إلى رفيقات ورفاق الدرب آنذاك والآن

إلى الدكتور عبد العزيز الخير وجميع الرفاق ننتظركم من أجلنا.

إلى من رحل منهم... بسام أضنلي، سمير عباس، ناظم إبراهيم، يوسف سليمان و عماد فطوم وعدي رجب...

وإلى أخي الدكتور يوسف (نجم) الذي لم يستطع أن يعود إلى البلاد حياً فعاد ميتا.

إلى نعمان عبدو رفيق التخفي والأقبية والسجون ذاتها من عدرا إلى تدمر، والذي استشهد أواخر عام 2014 في مخيم اليرموك.

إلى زوجتي رويدا وأطفالي نجم وبحر .

المقدمة

في الربع الأخير من القرن العشرين عمل النظام السوري جاهداً على تذرير المجتمع، ونجح في زرع رهاب عميق من العمل السياسي، بل رهاب حتى من التفكير والحوار حول مسائل السلطة السياسية بصورة جدية وهكذا تأتى له... تحويل المجتمع السوري إلى واحد من "مجتمعات الخوف" منذ بداية ثمانينات القرن الماضي.

السياسات القمعية أفرغت الحياة العامة من السياسية... وحطمت أوسع الأطر السياسية والثقافية والمدنية المنظمة...

شهدت أواسط السبعينات ولادة فصيل سياسي يساري معارض للنظام، الأمر الذي جعله هدفاً أول للنظام، وأجهزته الأمنية فامتلأت المعتقلات بمناضليه. وعرف فيما بعد بحزب العمل الشيوعي الذي تعرض أعضاؤه وكوادره - بعد مؤتمره الأول1981 - لحملات قمع شرسة متواصلة، والتي وصلت إلى ذروتها في حملة أواسط الثمانينات الحملة البوليسية الأقسى في تاريخه، والتي حاولت تحطيم بنيته التنظيمية وإفشال مشروعه السياسي.

هي حملة 1987 - 1988 والتي يبدأ بها "مطر الغياب" حيث اعتقل المئات من المناضلين والمناضلات من الشباب والصبايا من قارئ الجريدة إلى الصديق والى الرفيق، وجرت عمليات خطف واحتجاز رهائن لسنوات عقاباً على اهتمامهم بالشأن العام. وهم الذين اختاروا طريق

التغيير الديمقراطي السلمي و لم يستخدموا في حياتهم إلا الفكر سلاحاً لحل مشاكل البلد.

في تلك الحقبة العصبية وقف المئات من المناضلين الوطنيين الديمقراطيين من حزب العمل الشيوعي وغيره في مواجهة الاستبداد وتحملوا أقسى الظروف والأعمال الوحشية. تلك الأعمال التي حفرت عميقاً في وعي السوريين ووجدانهم فخلقت مناخاً من الخوف العميق من العمل السياسي ومن تناول قضايا الشأن العام.

وتلقي صفحات الكتاب الضوء على تلك السجون، ومنها سجن تدمر الرهيب الذي لا نظير له في تاريخ السجون السورية. ومعتقلي هذا السجن ودعوا القرن العشرين واستقبلوا القرن الحادي والعشرين منقطعين عن العالم. و لم يعرفو مثلاً ما الذي حصل عند انتقال السلطة من الرئيس الأب إلى الرئيس الابن..! ومر أسبوع وهم يعتقدون أن هناك انقلاب عسكري! حتى وُزعت عليهم جريدة البعث!!

رغم كل ذلك

عجز القمع عن إلغاء توق السوريين إلى الحرية، وعجز عن إلغاء حلمهم بالعدالة والديمقراطية ودولة قانون وإنهاء الفساد.

وبالعودة الى تلك الحقبة ندرك أنه لولا ذلك القمع المعمم لما أصبح مصير الوطن اليوم معلقاً بين الاستبداديين السياسي والتكفيري. ولما كانت أراضيه مستباحة من داعش وأخواتها.

"مطر الغياب"، يلقي الضوء على تلك المرحلة والمحطات التي خاضها المناضلون من التخفي والملاحقة والمحاكمة أمام "محكمة أمن الدولة العليا" الاستثنائية، من خلال تجربة أحد المنخرطين المباشرين فيها. ممن آمنوا بغد مختلف لشعبهم، مع معرفتهم الأكيدة بالثمن السياسي والانساني الباهظ الذي سيدفعونه... قابضين على الجمر بكلتا يديهم.

1

فصل الغياب

خريف عام1987، فصلُ الغياب، يذهبون ولا يعودون... يُخشى الخروج من البيت، فاللاعودة هي الاحتمال الأكبر.

أنت الآن في اختبار المواجهة، الاختطاف في كل مكان، من الشوارع والجامعات، الكليات المدنية والعسكرية، فقد شملت الاعتقالات: الطلاب، الموظفين، العمال ومجموعة من الضباط،، إنّه الكابوس... العشرات... لا حاجة لأية أدلة... الاعتقالات بالجملة، كأنه الانتقام!! القوائم جاهزة ومفتوحة لتطال كل من يشتبه به أو يعترف أنه أبدى استعداداً ما لتقديم أي خدمة ـ من أي نوع ـ أو التعاطف مع الزنادقة المغامرين.

تمكن (الحكيم) من السفر إلى الاتحاد السوفيتي من أجل إكمال دراسته للاختصاص في الطب الوقائي قبل أن تصل المعلومة لجهات الأمن بأنّه على صلة بحزب العمل... وحيداً... وحيداً... لم يكن أحد في وداعه في المطار، وحيداً أيضاً... لن يكون أحد في استقباله بعد أقل من عام مساء 9 تشرين الأول من ذلك العام كان لقاء خلية آب / زياد وجمال وأحمد الزعتر/ على مفرق بوقا، ثم انضم إلى اللقاء أحمد

الأشقر، كان يختبئ وراء نظارة سميكة تخفي زرقة عينيه، هل عرفتموني؟ ضحكنا... وسألناه: أتختبئ وراء إصبعك؟

جمال ـ طالب الطب ـ ذهب معي إلى منزلي لأنّه لم يعد قادراً على البقاء في البيوت التي يعرفها، تتوارد الأخبار العاجلة... طارت فلانة... طار فلان... كل هذا و لم تكن مدينة اللاذقية قد فرغت بعد من وداع ضيوفها وضيوف الدورة العاشرة لألعاب البحر الأبيض المتوسط.

صباح 10 تشرين الأول السيارات محملةُ بالعناصر المستنفرة.. تجوب أحياء المدينة كلها، مداهمات متواصلة وتعود محملة بالمعتقلين والمعتقلات.

نام عندي جمال في الغرفة الصغيرة المطلة على الشرق... وزياد في غرفتي المطلة على الشارع الرئيسي، ذهبت صباحاً إلى حمص إلى موعد في حي النزهة وذهب زياد ـ طالب الهندسة ـ إلى جبلة ومعه مفتاح البيت ولكنه لم يعد! و لم يعد باستطاعتنا الاستمرار في المنزل. ذهبت مع جمال إلى صديق في نفس الحارة في ضاحية تشرين، استغرب صديقي الزيارة المسائية، وزاد استغرابه عندما طلبت منه أن يستقبل لديه جمال، يوماً أو بضعة أيام. تجاهلت نظراته، وذهبت إلى أحد الأصدقاء الآخرين لتأمين إقامة مؤقتة لأحمد الأشقر. ودون أي تردد ترك الشقة لنا.

نجا أحمد الأشقر بأعجوبة من الاعتقال في بيت المنطقة الصناعية، حيث تم اعتقال جميع المقيمين فيه.. وتمت مصادرة الآلة الكاتبة... شاهد أحمد فردة حذاء أحد الشباب في مدخل البناية، إنه حذاء فلان!! عاد سريعاً و لم ينظر ورائه، وأسرع في الخروج من المنطقة، وقد أكد له البقال حقيقة اعتقال الجميع!! ولو دخل إلى المنزل لاعتقل لأنهم كانوا يكمنون في البيت.

النزيف الحاد لم يتوقف، والخسائر فادحة، خيرة الشباب والصبايا غيّبوا قسراً عن حياتنا وحياتهم...

وفي الصباح افترقنا.. واتفقنا على اللقاء على الكورنيش الجنوبي، كان أحمد الأشقر على موعد مع الكوافير من أجل تغيير شكله، في الوقت المحدد جلست أنتظره عند صاحب الكشك الوحيد على الشاطئ الصخري، شرق السفينة المدمرة، أشرب الشاي قبالة المعهد الرياضي، أوقف أحمد سيارة أجرة قبالة الكشك وقطع الشارع متجهاً نحوي ونادى قبل أن يصل: هل عرفتني؟

أخذت أضحك، كان شعره الأشقر الطويل مجعداً، خصلات.. خصلات، وما أن جلس جاءت دورية أمن وقفت قبالتنا وترجل منها ثلاثة أشخاص، لم يعد أمامنا سوى الهدوء والاستكانة، فالبحر ورائنا وهم أمامنا، بقينا جالسين وجاء أحد العناصر إلى طاولتنا غطى هديرُ الموج المتكسر على الصخور هديرَ قلبينا، اقترب العنصر أكثر وقال: ممكن آخذ كرسي؟

ـ تفضل... تفضل، وتنفسنا الصعداء... هكذا كانت المواجهة الأولى، وجهاً لوجه، في اختبار حرب الأعصاب، نهضوا بعد أن شربوا قهوتهم، ونهضنا بعدهم، قلت لأحمد الأشقر يبدو أن جمال الـ (نيولوك) قد أفادنا كثيراً.

أصبح عدد الرفاق الموزعين كودائع لدى الأصدقاء كبيراً، وكبيراً جداً، ولم نرغب في تجميعهم سويةً كي لا يعتقلوا جمعاً، كما جرى لدينا في بيت الصناعة، وفي حلب، استأجرنا بيت في حي (المار تقلا) استقر فيه جمال، ويزن ووو...

ضاقت بنا المدينة التي نحبها، وخاصةً على أحمد الأشقر.. كان القرار بالخروج والابتعاد، ولضيق الوقت وعلى عجل وقع الاخنيار على قريتنا الجبلية الجميلة. الساعة العاشرة ليلاً.. السيارة الصغيرة تقف عند مدخل الجامعة في الزقزقانية.. أحمد الأشقر وزوجته سمر بجانب السائق

(أبو شكيب)، الطريق شبه فارغ.. عند مدخل بانياس الشمالي، الطريق الضيق ينتشر على جوانبه بعض المنازل المضاءة وكثيرٌ من المداجن، قال لي أبو شكيب: لماذا المداجن كثيرة عندكم؟ قلت له: من أجل التدجين... ضحك قائلاً: أما نحن فقد دُجّنا قبلكم من زمان.

أفاق أهلي صباحاً... لدينا ضيوف... قلت لهم: إنه صديقي أحمد، مريض بالقلب شفاه الله... بحاجة إلى هواء نقي.

كانت أختي في الثاني الثانوي والباقي موزعين بين الابتدائي والإعدادي والثانوي، كاد أهلي والأقارب يصدّقوا أن الضيف قصدنا طلباً للهواء النقي والراحة وليس هرباً من الاعتقال لولا أنه يدخن طالما كان صاحياً..؟!!

المواجهة مكشوفة.. بين طرفين غير متكافئين، آليات العمل معروفة والتقنيات معروفة أيضاً، كان "الكمون التنظيمي" تكتيكاً إجبارياً، واللجوء إلى اعتماد العلاقات الخيطية، بحيث يتم رؤية رأس الخيط.. وكل حلقة ترتبط بالحلقة التي تتواصل معها حتى نهاية الخيط... وأخطرونا بضرورة الاعتماد على تغيير توقيت المواعيد، لتصبح بين السابعة والثامنة صباحاً، وكذلك الأمر مساءً، وإذا كان الوضع عادياً يتم اللقاء دون كلام.

كان الوضع منهكاً جداً، والأعصاب متوترة، أصابنا النزيف الصاعق في الأعماق، غاب منا العشرات، ووهنت قوانا. أصاب الحزن الكثير من المنازل وفقد الأطفال أهلهم، وحصل أن غاب الأب والأم دفعة واحدة أو على دفعات في العديد من الأسر. ولم توفر الاعتقالات أحد، حتى أنها طالت العديد من الحوامل، وحصلت بعض الولادات والإسقاطات في غرف التحقيق أوفي السجن لاحقاً.

استمرت إقامة أحمد وزوجته سمر عندنا أكثر من شهر، نسجوا خلالها علاقات اجتماعية وإنسانية جميلة، وتم

دعوتهم للعشاء والغداء في أكثر منزل، لكن الوضع مؤقت، وخصوصاً بعد أن لاحت بعض المؤشرات السلبية، وكثرت الأسئلة حول الضيفين الغريبين، استأجرنا شقة في بانياس على طريق القدموس يتألّف الطابق الأرضي من البناء من ثلاث شقق، شقتنا فيها أربع غرف وصالون كبير.. الأثاث لدينا لا يملأ غرفة. بعض طراحات الإسفنج والأغطية وعدة الطبخ.

أشعنا أننا مدرّسون أمام الجوار، الجيران في طابقنا كانوا عبارة عن بعض الطلاب في إحدى الغرف الجانبية، والشقة الأخرى يسكنها زوجان في شهر العسل.

في تلك الأثناء كان النزول إلى الشارع محسوباً، نقتصد فيه تخفيضاً للاحتكاك وتقليلاً للاحتمالات السيئة، والمصادفات والمفاجآت، خصوصاً بعد أن قبل بعض "المنهارين" في التحقيق الخروج بالسيارات في محاولة من أجهزة الأمن للضغط على الحزب من جهة، ومن أجل حرق المناضلين، وتشويه سمعتهم... فوقع عبء العمل آنذاك... على أقلنا معرفة من قبل رفاقه... ولجأنا إلى أعمال التمويه لمن يخرج من أجل إبعاد الشبهات قدر الإمكان، نحمل أكياس الخضار بدل الجرائد والكتب، ونرتدي ثياباً يدلّ مظهرها على مهن شتى.

انكشفت إقامتنا في مدينة بانياس من خلال انكشاف أحد المواعيد مع المركز، حيث تم إلقاء القبض على المراسل القادم من دمشق في كراج طرطوس، عندما صعد أحد عناصر الأمن إلى الميكرو، وأخذ يحدق بوجوه المسافرين، ولما أظهر المراسل

قليلاً من الارتباك جرى توقيفه وتفتيشه، ثم اقتياده إلى الفرع، ونزع اللاصق الطبي عن ظهر يده... وتمكنوا من اكتشاف رسالة مخبأة في علبة الدخان... هكذا وقع المراسل شعبان في الكراج، وانكشفنا في بانياس.

انضم إلينا هناك مطلوب آخر، "ثائر" طلبه فرع الأمن السياسي على أثر اعتقالات تمت في حلب، كان يعمل في شركة كرنك اللاذقية، تم نقله بسيارة من الجهة التي يعمل لديها بسبب نفوذ مديرها، وهم في الطريق إلى الفرع في اللاذقية، أوقفوا السيارة من أجل تناول الفطور، فهرب ثائر وانضم إلى قائمة المتخفين.

2

أم مازن

أخذنا نعتمد، بسبب خسارتنا الفادحة، على بعض الأصدقاء والأهل للقيام ببعض المهام الخاصة في تأمين الاتصال ونقل الرسائل ولملمة الخيوط، لعبت أم مازن دوراً مهماً آنذاك، وصل الأمر إلى حد نزولها إلى الشارع. حدث ذلك في مدينة جبلة أولاً عندما أبلغوها بأن الشخص الذي سينزل إلى الموعد قرب الحديقة العامة شابٌ أسمر غامق. كان الأمر بالنسبة لي سهلاً لأنها تحمل الإشارة المتعارف عليها، وعمرها ولونها، كانت تحمل حقيبة يدوية وكيس نايلون، تنتظر شخصاً مشابهاً للمواصفات التي أبلغوها. راقبتُ المنطقة جيداً، ليس هناك ما هو غير عادي، اقتربتُ منها وقلت لها:

ـ صباح الخير، أين ثانوية طلال ياسين؟ "كلمة السر بيننا" ضحكت بهدوء وقالت:

ـ امش.. امشِ.. والله لو لم تقل كلمة السر لما أجبتك، لأنني أنتظر أن يأتي إلى الموعد شخص فلسطيني أو سوداني حسب ما قالوا لي.

ونظرت إلي ثم قالت: إنك أسمر حنطي... والله حرام

واستمرت الأم الرائعة في الوقوف إلى جانبنا ومعنا، وفي دعمنا مادياً ومعنوياً، ونزلت إلى الشوارع في اللاذقية ودمشق؟ وتابعتنا في السجون، في عدرا، وتدمر. ما قدمته لنا في سجننا في تدمر لا يقدر بثمن، عندما

يحين الحديث عن تلك المرحلة سأتحدث عنها محاولاً أنصافها كما أنصفتني أولاً...

لقد كان عنادنا في وجه القمع والفظاظة واحتمال ما يحيط بنا شيئاً من عناد من وقف معنا وإلى جانبنا، من أمثال أم مازن...

بانياس المدينة الجميلة، والصبية الهادئة، حارسة البحر، قدماها في الماء وظهرها على الجبل، ورأسها في السماء، تساهر النجوم وترعى القمر، مدينة بسيطة طيبة وضعوها بين نارين: في مدخلها الجنوبي المحطة الحرارية، وفي مدخلها الشمالي مصفاة بانياس، وفي الوسط الميناء النفطي.

تعتذر المدينة عن استقبالنا طويلاً، لأن الحصار سهل في المدن الصغيرة.. كنت مشغولاً في تلك الأيام بالمواعيد متنقلاً بين مدن الساحل الأربعة يومياً. ينتظرني أحمد الأشقر ووائل مساءً. وما إن أتعشَّ حتى أغط في نوم عميق، كانوا ينتظرون عودتي بلهفة لمعرفة مجريات النهار وما أستجد من أخبار الرفاق، من أجل إعداد الرسائل السرية المطلوبة في اليوم التالي.

في أحد الأيام عدت متعباً، أخذت حماماً دافئاً، وخرجت، كان أحمد يضع أمامه رقعة الشطرنج ويريد أن يلعب معي، لكن النعاس غلبني ونمت أثناء اللعب، حرّك حصانه وانتظر أن أنقل، وطال انتظاره، أفقت على صوت خبطة الشطرنج، وحجارة الشطرنج في أرجاء الغرفة نهضت عندها، غسلت وجهي، وجلست أضحك..

- ماذا تريد؟

- أريد أن أجلس مع أحد، شهران بمران! لو جمعت مدة الكلام بيننا.. أريد أن تعرفني على أحد أزوره.. أريد أن أرى بشراً، سواك!!..

سهرنا سوية تلك الليلة، وعدته أن أعود باكراً في اليوم التالي وأن نذهب سوية في زيارة بعض البشر..

جهز أحمد الأشقر نفسه كعادته، خرجنا مساءً من مدخل البناية، أخذ يتنفس

بعمق، ويلتفت يميناً ويساراً.. وكأنه يخرج من سجن طويل.. وقف أحمد مدهوشاً عندما قلت له:

ـ إننا ذاهبان لزيارة أسرة، مر على آخر لقاء معهم أربع سنوات.. فقال:

ـ هل أنت مجنون؟

ـ بعد أن عرفتك أصبح الجنون أمراً عادياً.

ضحك وأشعل سيجارة من أخرى، دخلنا زقاقهم، يخيم الهدوء الثقيل... قرعت جرس بابهم.. أجاب صوت أنثوي ناعم: من..؟

ـ نحن ... أنا...

ذهبت الصبية الصغيرة وعادت أختها الكبرى.. وكررت: من بالباب؟

ـ أنا .. نحن.. أستاذ الانكليزي.

فتحت الباب.. دخلنا، لاحت بوضوح بسمتها الهادئة ونظرتها المنكسرة خجلاً ـ مدهوشةً، غير مصدقة أن أكون الزائر بعد كل هذا الغياب. دبّت الجلبة في الغرفة المجاورة.. وبدا الحرج علينا وعليهم.. جاءت الأم، أم عادل، ورحبت بنا أجمل ترحيب بالأحبة.. فالشوق باد رغم المفاجأة التي زرعت المنزل حركةً واضطراباً ودوراناً في المكان..

لمّت الصبايا كتبهن الموزعة على أرض غرفة الجلوس وجلسنا على "طراحات" الإسفنج وعرفتهم على صديقي:

ـ عبد الرزاق، استاذٌ في ثانوية جبلة الصناعية.

رمقني أحمد باستغراب ودهشة من هذا الاسم الجديد الذي أطلقته عليه للتو!.. كانت الأخت الثانية تجلس صامتة تختلس النظرات من بين خصلات شعرها المتدلية على جبينها..

لما تلاقت نظراتنا حاولت الاختباء خلف أختها، وضعت الأخت الكبرى

عدة "المتة" والليمون وبدأ عبد الرزاق يتجاذب أطراف الحديث مع الصبايا..!! وطلبت منا الأم الرائعة أن نجلب لها الثياب من أجل غسلها، ثم دخلت أم عادل إلى المطبخ، وأخذت تدور بي الأشواق كما تدور حسرة بين جذوة النفس وابتهال القلب..

تظلين ذلك الحلم الضائع مغمساً بالسهد والوهم والخيال. يا قريبة قرب الرمش من العين. ويهتدي الحلم من سراب إلى سراب.. وليس على جراحي غير ملح بحر بانياس،فأين يدك تنتشلني من تحت الماء.

بدت الصبية مدهوشةً، مبهورة، عزلاء، ثملة، وحائرة.. وبدا قلبها قد فاض به الشجن... وما عادت الكلمات قادرة على إطفاء نار قلبينا..

رغم غيابك يا امرأة كل هذه الأعوام.. وانشغالي عنك.. انكشف الحزن.. وهطل الشوق، فهل تودين في سهرة واحدة إنفاق كل ما اجتمع في صدرك من مخزون؟

طالت سهرتنا. كانت المفاجأة عندما هممنا بالخروج، أعدت لنا الأم الرائعة كمية كبيرة من كل أنواع المؤونة، أكياسٌ وعلب، زيت، زيتون، حمص، مكدوس، رمان، بامياء، ورب البندورة، و.....

تفتحت مسامات ذاكرتي، هطل مطر دموع الغياب، خرجنا من البيت...

ـ تصبحون على خير.

وعلى وقع كلمات الوداع مع السلامة و"منعادة" صحوت على كلمات أحمد في الشارع:

ـ يالفاجعة العشاق! في إمكاننا الليلة أن نعرف تجنيكم، تجني المطر على العشاق. كانت قلوبنا ترتجف على شجرة الغياب، نحن يتامى الحب. يا صديقي إن حبي لهذه الفتاة قد تركته رغماً عني و لم يتوارَ... الحب ليس طبقياً إنه لكل الناس كبارا وصغاراً أثرياء وفقراء.. وضعت الأغراض على باب البيت كي أتمكن من فتح باب الشقة.. حملنا الأكياس وضعناها كما هي في المطبخ!..

3

نقل وتوزيع المتخفّين

أعداد المتخفّين كبيرة، المدن الصغيرة لا تستطيع استيعابهم وحمايتهم. صوب دمشق إذن. بعد توفير أماكن إقامتهم، في دمشق يتوفر الأمان.

حلّ دور جمال في السفر إلى دمشق. كان لقاؤنا مساءً في الشارع الواصل بين الجامعة ومفرق بساتين الريحان، شارع شعبة التجنيد الثانية، أبلغته أن موعد سفره قد حان وأن عليه أن يجهز نفسه وأغراضه، طلب مني تأمين منزل خاص من أجل توديع صديقته نجاة، لم تكن أمامنا خيارات عديدة. بل الخيار الوحيد هو اللقاء في بيت المارتقلا.. كان اللقاء حزيناً...

والد جمال يبحث عنه، وقد أرسل قصاصة ورق أعطاه إياها أحد ضباط فرع الأمن العسكري.. حول ضرورة مراجعة جمال للفرع لعدة أسئلة وبعدها سيتم إطلاق سراحه..

كانت المناورة مكشوفة، لاداعي للمخاطرة، وإن فنجان القهوة يعني سنيناً من الاعتقال.

عندما ضاعت جهود الأب المنكوب، في أن يعيد ابنه طالب الطب إلى جامعته وبيته انهارت أحلامه وأصيب بنوبات من الغضب والهستيريا التي أفقدته السيطرة على أعصابه..

نهض جمال صباحاً. تاركاً خلفه الأهل والجامعة وربما السجن. واختار صامتاً التخفي النهائي والمصير المجهول، والمستقبل الغامض. افترقنا.. على موعد باللقاء في بانياس في اليوم التالي الساعة التاسعة صباحاً على مفرق القدموس...

كان السفر إلى دمشق بشكل متقطع، من اللاذقية إلى بانياس، ومن بانياس إلى مصياف، ثم حمص ثم دمشق. في محاولة لتجنب المرور على الحواجز.

وصل إلى موعده صباحاً، تمشينا على شاطئ البحر ... كان يتجه صوب اللاذقية ويعب من هواء البحر الثقيل مودعاً..! تودعنا في بانياس. بعد أن أخذ مكان وزمن الموعد في دمشق، الأول والاحتياط... وتفرقت خلية آب... زياد اعتقل.. وها هو جمال يصبح متخفياً... وأحمد الزعتر متفرغ... وسافرت بدوري إلى طرطوس، ثم إلى دمشق، نزلت على الموعد المركزي... لأن المواعيد بعد حملة الاعتقالات ازدادت تعقيداً... وكان علينا استخدام لوحات الأمان، لوضع إشارة متفق عليها في لوحة الأمان، قبل الموعد.. كانت لوحة الأمان في نفق شارع الثورة. حيث كان هناك مستطيل ماستر ينبغي وضع إشارة × داخلة، أما الموعد فكان في القنوات... حملت الإشارات المتفق عليها، جاء الشخص المكلف بالموعد وألقى علي سؤال كلمة السر:

ـ أين مجمع إبن عساكر؟

ـ إنه في القاموس المحيط.

تم اللقاء...

كان الموعد الثاني مع "بلال" الأسمر، قصير القامة والمتخفي منذ فترة طويلة، وتعرض للاعتقال سابقاً ثم خرج في شباط 1980 ثم عاد إلى العمل السياسي والتحق بالحزب، واضطر للتخفي مرة أخرى، عمل فترة طويلة

في اللاذقية قبل اضطراره للسفر إلى دمشق بسبب انكشافه هناك.. وتركز الضغط الأمني من أجل إلقاء القبض عليه.. وأصبحت قصته مشهورة عندما عاجل الشخص الذي يريد اعتقاله بلكمة قوية على وجهه، أفقدته الوعي... وتمكن من الهرب...

تركز الحديث في لقاءنا حول الهم الأمني... والتشاور في إمكانية نقل تكتيك الحزب في مواجهة الأزمة "الهجوم السياسي والكمون التنظيمي" من النظرية إلى حيز الواقع...

- بعد ساعة سيصل جمال وعليكم استقباله.

- كل شيء جاهز لاستقباله.

في الوقت المحدد للموعد، نزلت إلى مكان الموعد مع جمال في البحصة أمام المركز الثقافي الفرنسي، لاشيء غريب إلا جمال، يقف حاملاً إشارات الموعد كالغريب ينتظر من يأتي ليستقبله، كانت المفاجئة عندما ناديته، فأغرورقت عيناه.

- هل حصل أي شيء؟

كان الحزن والإرهاق باديين بسبب السفر الطويل. أشفقت عليه.. وأخفيت مشاعري، وكبست على الجرح بالملح، سرنا سوية وقلت له:

- هل تعرف دمشق جيداً؟

اشتدّ حزنه وصمته، صعدنا باتجاه الجبل، على طريق المهاجرين، حتى وصلنا إلى منطقة الموعد قرب المعهد الثقافي الإسباني "سرفانتس" صعدنا على الدرج درجة درجة كان "بلال" ينتظر في أعلى الدرج، عندما شاهدنا نزل الدرج نحونا، تعانقا طويلاً، انعطفنا على اليمين وصعدنا الدرج الموازي:

- هل تريدون مني شيئاً ها قد أوصلتك سالماً، لا أستطيع التأخر، لأني

يجب أن أكون قبل الصباح في بانياس قبل أن يغادروا البيت!

كان باص "الهوب هوب" هو واسطة النقل الرئيسية، فالطريق طويل، والبرد شديد، نزلت في بانياس على جسر القدموس، تجاوزت الساعة الثانية والنصف صباحاً، الهواء بارد جداً، المدينة نائمة يهدهدها البحر، أصوات الأمواج المتكسرة على الشاطئ، وبعض السفن كأنها قادمة نحوي، طريق القدموس مستقيم يفضي إلى البحر تماماً.

وصلت إلى البناية أخرجت مفتاح الباب وأدرته على مهلٍ وبهدوء أغلقت الباب خلفي، كان أحمد الأشقر ما يزال ساهراً ينتظرُ عودتي، انفرجت أساريره وهدأ قليلاً، ناولته الرسائل السرية قرأها ثم أحرقها على الفور.. قلت له:

- يبدو أن موعد سفرك يا صديقي إلى دمشق قد اقترب أيضاً، لم يبق أمامك سوى يزن وثائر.

في الثامنة صباحاً سافرت إلى اللاذقية وقابلت يزن، يزن غير منضبط، يخرج كثيراً من المنزل، ويذهب إلى أقاربه، ويصل إلى حارته في "الدعتور.."

كان قلقاً يجلس على الطاولة ويضع أمامه قلم ويتقمص دور المحقق والضحية، يسأل ويجيب:

- س: ما علاقتك بالأشقر؟

- ج: لا أعرفه

وازداد اضطراباً عندما أبلغته أن ساعة الرحيل قد حانت، ولما أصرّ على معرفة آلية السفر وزمانه، قلت له أن السفر سيكون متقطعاً وربما إلى حلب ثم إلى دمشق كي نتجنب بعض المخاطر الأمنية، أبلغني أن لديه واسطة نقل مأمونة تنقله إلى حيث يشاء، شرط أن يتم تبليغه قبل 24 ساعة من السفر.

وصل يزن إلى دمشق، عبر واسطة النقل التي أمنها بنفسه، فنزل إلى الموعد في الشارع المجاور لمشفى المواساة... كانت إشارة التعارف هي سندويشة يأكل فيها.. أما كلمة السر/ السؤال: أين مطعم العمر؟ الجواب: أنه على سطح القمر!..

لم ينزل أحد، كانت السفرة مكركبة من بدايتها، وضرب دولاب الباص أول مرة قرب تلكلخ، وضرب دولاب آخر في قارة، وصل الباص... كنت أول النازلين منه، استقلّيت أول سيارة أجرة: ـ إلى المواساة.

ـ خير انشاء الله!! هل لديك مريض هناك؟

ـ نعم.

ـ عليه العافية .. ماهو مرضه..؟

ـ الجنون.

ـ لكن المجانين يوضعون في مشفى ابن سينا في عدرا!

ـ امتلأ ابن سينا بالنزلاء!

ما زال الوقت باكراً على الموعد الثاني الاحتياطي، اشتريت سندويشة فلافل، بدأت آكلها وأخذت أخطو خطوات بطيئة على مهل، أتفحص مداخل البيوت وأدقق بأرقامها وكل ما يغطي مرور الدقائق الثقيلة حتى يحين الموعد، وقبل نهاية الشارع بعدة أمتار من المشفى، أطل من الجهة المقابلة يزن، حاملاً سندويشته فلما رآني ألقى سندويشته على الأرض، ورمى بأعلى صوته رشقةً من السباب والشتائم، تعانقنا طويلاً، أعطيته مفتاح الموعد المركزي، ليضع الإشارة في لوحة الأمان الموجودة في كبينة الهاتف على يمين مدخل سوق الحرف اليدوية خلف وزارة السياحة، ثم ودعته وافترقنا، التقينا سوية بعد عدة أمتار، ثم عاد وتوقفت بإشارة من يده.

ـ ماذا تريد؟

ـ سلّم لي على اللاذقية والشباب... وزوجتي وطفلتي...

سيطرت علي في الرحلة كلماته الأخيرة، وبدأت أستوعب سبب عدم انضباطه خلال إقامته في بيت "مارتقلا" وصلت إلى بانياس، باكراً، كانت العاشرة مساءً.

أحضر أحمد العشاء، أخذت حماماً ساخناً، وتعشّينا واستمر أحمد الأشقر صامتاً، الصمت ولاشيء غير الصمت، افتتحت الحديث عن يزن وطفلته وزوجته وقلت له:

ـ إذا كنت تعرف مدخلاً إليهم فأرجو أن تطمئنهم بوصوله سالماً...

تملكني إحساس فظيع بالفراغ الذي يشكّله غياب الأحبة، والسفر الدائم والحركة الدائمة، وسألت نفسي إذا جاء دوري فمن سيتولى إدارة المنطقة وشؤون الرفاق رغم أن الاعتقالات متقطعة، فلا يجري تعويضها، و لم نلتقط الأنفاس بعد، وإن معظم المتبقين يعانون من آثار الفترة على نحو مباشر إما بخسران أخ أو قريب أو صديق.

قطع أحمد صمته وقال:

ـ ألن تذهب إلى بيت "أم عادل" لأنك وعدت الصبايا بزيارتهم قريباً، ومساعدتهن بالدراسة.

ـ غداً بعد أن أعود، سأحاول أن أعود باكراً، من أجل زيارتهن.

4

أم عادل

ـ عندما زرناهم، لم نشاهد سوى الصبايا فأين عادل؟

سأل أحمد الأشقر.

ـ ليس هناك عادل ولن يأتي.

يا صديقي إن أم عادل أرملة منذ سنوات عديدة، توفي زوجها أثناء خدمته العسكرية، كان معلم وكالة، أنجبا خمس بنات، كانوا ينتظرون قدوم عادل الذي لم يأت.! بعد وفاة زوجها "علي" فقدت الصبية زوجها وحبيبها وصديقها مخلفاً لها خمس بنات جميلات. وقعت المصيبة على رأس الأم التي أخذت تعمل في شتى أنواع الأعمال من أجل تأمين لقمة عيشها والبنات، وبدأت تنهال عليها الضغوط من كل حدب وصوب، تعرضت لأبشع أنواع الاتهامات الأخلاقية من أجل إحراقها تحت حجة السترة أحياناً ودفعها للزواج حفاظاً على سمعتها ومصلحة البنات أحياناً أخرى! ولأنها جميلة، وفي أول العمر بدأت تحوم حولها الذئاب.. تشتهيها .. ولما عجزت من التمكن من نهشها، حاولت تلويث سمعتها، وتهافت العشاق والمعجبون عليها، فاختارت أن تضحي دون حسابات الربح والخسارة، وأخذت تشق طريقها وسط التحديات.

طرقت كل الأبواب من أجل تأمين فرصة عمل دائمة تؤمن لها مصدر عيش لائق. كانت تمشي يومياً عدة كيلو مترات من أجل أن تصل إلى

عملها وتعود منه إلى بناتها الصغيرات وتعتني بهن، وتمكنت من بناء منزل في القرية. بعد عدة سنوات من ذلك الشقاء والكدح أصبحت البنات موزعات من الابتدائية إلى الثانوية في مدارس مختلفة، فعملت على حل المشكلة من أساسها واشترت منزلاً من أجل أن تلم شمل الصبايا معها كما رأيتهن في وقت يصعب على الرجال ذوي الشوارب والعضلات المفتولة تحقيقها.

عاد أحمد الأشقر من شروده وقال:

ـ لقد تأخرت، ألن تذهب إلى تعليم الصبايا؟ وينبغي عليك أن تعتبر أن استمرار علاقتك بهذه العائلة جزء من عملك الحزبي...

في المساء شعرت باضطراب ينتاب جسدي، وأحسست بقشعريرة تهز بدني، أربع سنوات انقضت على لقاءنا الأخير، ما زالت عبارتها الأخيرة ترن في ذاكرتي عندما قلت لها بعد خلاف معها أنني ذاهب.

خرجت حينها من بيتهم كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً سلكت طريقاً صعباً وخطيراً كي لا يراني أحدٌ وأنا خارج وربما للمرة الأخيرة.. لم أذهب مباشرة إلى منزلها ببانياس مشيت في الشوارع المحيطة تنهبني الأحاسيس المختلطة، عيونها الخضراء ونظراتها الخلس، والصوت المبحوح وإلى عام 1982-1983 عندما انتقلت لتسكن وشقيقتها في مركز الناحية واللهفة التي أتت بها والبرودة التي قابلتني بها ما زال سارياً في أوصالي، حاولت إقحامها فيما لا يهمها ولا يعنيها وطلبت منها ما يطلب من فتاة ناضجة، خرجتُ من غرفتهما المستأجرة، الساعة تجاوزت الواحدة صباحاً، كان الهواء بارداً والريح عاصفة، مشيت بضعة أمتار... عدت وقرعت الباب، طلبت منها أن تعطيني كنزتها الحمراء كي أدثر رأسي بها اتقاءً للبرد ومحبةً بها، صعدت الجبل، الريح في وجهي تصفر، أصارعها كي أخطو للأمام، المسافة طويلة، ما زالت الغابة بعيدة قليلاً، رأيت ضوء سيارة قادمة، اختبأت على يمين الطريق، تابعت المسير بشق

الأنفس، اعتقدت أنني لولا كنزتها الحمراء لما وصلت سالماً، بدأ شعر رأسي ينتصب على قوائمه، إنه الخوف الذي تسلل إلى داخلي، قشعريرة تهز بدني وأشعر الآن بأن شيئاً مشابهاً لتلك القشعريرة يهزني، الريح تصدني والخوف يهدّني و لم يعد هناك ما يساعدني على الاستمرار سوى تلك الكنزة الحمراء التي تحمل رائحة الحبيبة، أربع سنوات مضت ما زلت أشعر بأيديها عندما أمسكنا بأيدي بعضنا البعض ودموعها تنفر كالنبع. ربما خوفاً أن تستيقظ أختها النائمة وربما خوفاً علي لأنني سأموت بسببها في تلك الليلة المأساوية.

قلت: سأحبك ما دمت حياً.

قالت: لن أنساك أبداً.

أنهكني البرد والتعب وما عدت أسمع بأذني، لففت رأسي جيداً بكنزتها الحمراء وأسندت ظهري ونمت قليلاً، استيقظت مذعوراً على صوت سيارة صاعدة باتجاه قريتنا، إنها السيارة التي تصعد إلى القرى الجبلية البعيدة لتجلب العمال، أعلنت تلك السيارة قرب انبلاج الصباح فدبت الشجاعة في أوصالي ودخلت الغابة، الصنوبر على الجانبين، تبدو أشكال بعض الشجيرات مخيفة أحياناً، نظرت إلى الوراء، رغم الخلاف اتقد الحنين في صدري وصار الحنين جرحاً لا يندمل، وصلت إلى القرية في الخامسة صباحاً، لم أذهب إلى بيتنا بل إلى بيت عمي، أيقظت زملاء الصبايا الذين سيذهبون إلى المدرسة، تناولنا الفطور سوية وأرسلت لها الكنزة الحمراء معهم، للحبيبة، دلالة على أني وصلت و لم أمت!!

وبين أحاسيس متناقضة، السماء تمطر، قرعت الباب.

- من؟

- أنا.

- تفضل.

دخلت وقد أنهكتني جراح الذكرى والحنين والكبرياء.

البنات يتحلّقن حول المدفأة في جو دافئ يذوب عذوبة وراحة وهدوءاً. جلست معهن جميعاً.

انبرت الحبيبة سابقاً قائلة:

ـ لماذا تأخرت؟

تماسكت وراء هدوئي المصطنع! من ثم قالت بصوت واثق:

ـ هيا بنا إلى الغرفة الثانية من أجل أن تشرح لي بعض القواعد.

جلسنا قبالة بعضنا بعضاً وأخذت تنظر وتحدق بي، فتحت كتاب اللغة وبدأت أشرح لها، وضعت يديها على الطاولة وأسندت وجهها بهما وبدأت تطرح أسئلة شخصية عن الجامعة والزميلات، كان قلبي المسكين المدمى والعاشق يقوده رأسي الصارم الذي يسيطر على الموقف ويفرض على لساني قيوداً شديدة، بدوت كأني مشلول أمامها فأمسكنا بأيدي بعضنا البعض، دموعها تنفر وأنا أتماسك وراء صمتي، قالت: أحبك... سأحبك ما دمت حية!

قلت لها: لن أنساك أبداً.

وافترقنا، وما أن وصلت إلى نهاية الشارع وهي واقفة على باب بيتها حتى نادتني وسار كل منا نحو الآخر فهرولنا لنلتقي من جديد..

قالت: لا أستطيع فراقك...

قلت لها: وأنا أيضاً.

ثم تعانقنا وافترقنا من جديد، وبقينا أكثر من ساعة نفترق ثم نعود ونلتقي كان ذلك هو اللقاء الأخير بيننا، الفراق صعب والوداع أصعب والغربة بينهما أكثر صعوبة، إن لم أقل أكثر مأساة.

5

الحافة القريبة من الذاكرة

في شهر شباط عام 1988 تجددت موجة الاعتقالات وتم اعتقال سمر زوجة أحمد الأشقر كرهينة عن زوجها المتخفي، سمر طالبة الرياضيات الصبية السمراء الودودة، في ذلك الحين توفي جدي، أتيت إلى القرية في اليوم التالي لوفاته حزنت عليه كثيراً وعندما سلمت على والدي طفرت الدموع من عينيه وقال: مات جدك وأنت لم تحضر جنازته وأخيك الحكيم بعيد لم يسمع، كان موقفي صعباً، لا بد من الاعتماد على أحد ما كان الخيار على أمل الصبية السمراء، تلبس نظارات طبية سميكة، أخذت تتحدث دون توقف وتطرح أسئلة وإجابات، لا تبدو خائفة من الاعتقال، صادف 14 آذار، ذكرى مرور أسبوع على وفاة جدي، كنت مشغولاً بالغياب وتولد لدي إحساس حزين هجمت صورة جدي وأخي المسافر الذي يكن كل الحب لجده مررت مساءً على جدتي من جهة الأم الإنسانة الرائعة التي ربتُ معظم أولاد الحارة، هذا البيت العزيز الذي احتضنني وأنا صغير وعرفت فيه طعم (المتبلة) الباردة في الصيف، ودفء ليالي الشتاء. لم يكن من العمر اليوم الذي لا أمر عليه. هنا الأصدقاء وهنا الذكريات الجميلة. شعرت بالجوع والظمأ إلى الأمكنة الدافئة والحنونة، ها هي شجرة التوت التي شهدت طفولتنا. كانت جدتي، كومة في سريرها

سلمت عليها وقبلت وجهها، هل جئت تودعني يا جدتي بعد أن ودعت جدك؟ قبلتها وغمرت يديها في يدي، لا شيء ينفع يا جدتي، قبلات فقط لا شيءسواها لأعبر عن عميق امتناني لكل ما قدمته يداك ووجهك الجميل، بسمتها الدائمة وحضورها الملائكي و لم تنس في موعدنا الأخير أن تسألني عن الحكيم، قبل أن يسافر الحكيم أخذ للجد والجدة صوراً وسجل لهما حديثاً يساعده في مواجهة الغربة، الإحساس الصادق بأنه الوداع له ولهما ولنا جميعاً، بينما كنت هناك أقف بين يدي جدتي جاء صديق العمر ابن عمي يركض ما الأمر؟ المخابرات يريدونك...

لمع ضوءالسيارة قادماً من الشمال أنهم المخابرات.

أطلقت رجلي للريح وسلكت أول دخلة على اليمين، قفزت فوق امرأة تبول، وما هي إلا دقائق معدودات حتى لحقني زوجها يحمل في يده بندقية يصوبها نحوي... من أنت؟ أنا فلان... أبن فلان..! كانت سيارة الأمن في تلك اللحظة تمر قربنا عندما قابلوا ابن عمي، توقفوا، منذ قليل رأيناك، نعم... هل أبلغت ابن عمك كي يهرب ؟ كنت أستمع إلى الحوار الذي دار بينهم...

قال لهم: بيت الأقارب المتوقع أن أكون فيه.

كان يسابق السيارة، يحاول أن يصل قبلهم، يخاف أن يسبقوه .يبدو أنهم اضطروا إلى الوقوف عند أحد المسؤولين المحليين الصغار من أجل أن يدلهم على بيت قريبي، وهذا ما أعطى الوقت كي يسبقهم، قرع الباب بقوة ودخل قبل أن يسمع الجواب، تفاجأ صديقي ماذا يجري؟ هل أخي هنا ؟ لا... لم يأت اليوم «الحمد لله» لماذا؟ لأنهم يبحثون عنه وقد يأتون إليك خرج بسرعة وهبط نحو نبع الماء الذي يقع في منطقة مخيفة، وما هي إلا دقائق حتى وصلت الدورية وبمساعدة أحد الأعوان تعرفوا على البيت قرعوا الباب ودخلوا بكل تهذيب واستخدموا أسلوباً مختلفاً قالوا: أنهم

أصدقائي وأنهم يحملون بعض الأدبيات جاءوا من أجل إيداعها عندي: وانفجر فيهم... ماذا تقولون؟ أدبيات لا أعرف شيئاً عنها وليس له عندنا أية أدبيات، ذهبوا راقبت السيارة التي انعطفت يميناً نحو القرية المجاورة.

هكذا، أصبح الأمر واضحاً نجوت من الاعتقال، أخذت أستمع إلى نبضات قلبي الذي كان يقفز من صدري، وبعد أن اختفت السيارة قمت ببعض الترتيبات، أرسلت رسالة إلى شقيقتي الغالية على ورق أسمر سميك طلبت منها أن تتخلص من وثائقي الشخصية وصوري.

عدت إلى جدتي فتحت الباب، جلست عندها ودعتها وبدأت تدور الهواجس في رأسي كيف حصل الذي حصل ومن أين جاء الخرق والاعتراف..؟ لم أنم في تلك الليلة، وفي الرابعة صباحاً، أيقظت ابن عمي نديم ومشينا على الطريق ذاته الذي صعدته يوم خلافي مع الحبيبة، قبل الفجر كنا في مركز الناحية صعدنا في أول ميكرو إلى بانياس في الطريق إلى البيت اتفقت مع نديم على الرواية الأمنية أعطيته المفاتيح وانتظرته بعيداً على أن يعود بعد أن يتحرى الوضع و لم يتأخر، عاد. كان الوضع في البيت عادياً جلبنا سيارة وأخذنا كل الأغراض معنا إلى اللاذقية وقبل أن نصل إلى جبلة على الأوتستراد كان وراءنا سيارة مسرعة تحاول اللحاق بنا إذن البيت مكشوف وهاهي سيارة الأمن تطاردنا سيطرت على أعصابي وجهزت نفسي للأسوأ وأخذت تدور في ذهني العبارة التي قالها أحمد الأشقر: «تنقصك المبادرة»! تجاوزتنا السيارة وأومأت لنا، أنها سيارة مازدا، تحمل عمالاً لأحدى الشركات العامة يلوحون لنا لأنهم التقطوا عن الطريق إحدى فرشات الإسفنج التي طارت عن ظهر السيارة دون أن نشعر بها، وقد جلبوها معهم تنفست الصعداء شكراً شكراً لكم، اختبار آخر لحرب الأعصاب خوفاً من أية مضاعفات أخذت السيارة إلى مكان آخر عن منزلنا ثم نقلت الأغراض بسيارة أخرى كي لا يعرف السائق الذي أوصل الأغراض المنزل الذي انتهت إليه فيما لو انكشف الأمر يوماً ما.

هكذا انضممت إلى مجموعة المتخفين وبدأت أسترجع أحداث 88 على شاطىء البحر. هكذا كان عام 1988 كئيباً منذ بداياته فالعشرات من المناضلين يقضون رأس السنة في الفروع ومئات العائلات تشتكي غياب الأحبة ولوعة الفقدان عشرات الأمهات والزوجات ومئات الأطفال قلوب فاض بها الشجن لأن كل الوعود بعودة الغائبين لا تكفي لإطفاء نار أسئلة قلوب صغيرة نضجت الآلام واستوى الحزن وآن للشوق أن يهطل مطر دموع الغياب سهرنا وحيدين، أحمد الأشقر وأنا وحزننا وحشونا سهرتنا بذكريات العام الماضي ونتوحد في الحزن لأول مرة، أحمد الأشقر يحشو غليونه بغيوم تنهداته قلت له: الليلة يبدو تجني الحب على العشاق، ياللفاجعة! عشاق يواجهون وحيدين، قلوبهم مبللة بالحزن ترتجف على شجرة الغياب. نحن يتامى الحب وماذا عسانا نقول : ونحن كلما مضى على وضعنا الجديد يوماً، رجعنا في الذاكرة أياماً بل و سنوات إلى تلك الأمكنة الدافئة الحنونة.

أصبحت وحيداً بعد أن انضم أحمد الأشقر إلى الشباب في دمشق هاهو المكان الذي شهد لقاءنا حرب الأعصاب مستمرة يوم السفر، سفر أحمد الأشقر من بانياس إلى مصياف ثم إلى حمص ومن حمص إلى دمشق بشكل متقطع من حمص إلى مفرق القصير ثم إلى دمشق بسيارة شحن أومأ لها أحمد لقد تأخرنا عن موعد الباص على مفرق القصير سألت أحمد : هل أنت خائف ؟قال أحمد : أنىّ اتجهت ثمة ما يخيف إننا مكبلون بالخوف منذ سنواتنا الأولى، الخوف من العائلة ، من المدرسة ، من المجتمع ، من التقاليد من السلطة، تحاصرنا سلطة الخوف وثقافة الخوف ولا حرية من ثقافة الخوف إلا بالهجوم عليها. كنت أقول لنفسي ألهذه

الدرجة تخاف سلطة، تمتلك أسباب القوة والتحكم بالبلد، خائفة منا ؟وإلا لما حشدت كل ما حشدت من أجل زجنا خلف القضبان !! لكننا! وهل يمكن شن حرب على ثقافة الخوف إلا بالمغامرة المغامرة. ثقافة الشجاعة وشجاعة الوجود أن يكون لديك وجود كما تريد لا كما يريده الآخرون، انفصلنا عن بعضنا وأصبحنا فلقتين كل واحدة منهما في مكان أحمد الأشقر في دمشق وأنا هنا على شاطىء البحر نهبًا للوجد والحنين شهور عديدة ونحن على تماس وتواصل ونقار يومي في آخر يوم ودعته وبعد وصولنا إلى دمشق بسلامة قلت له: «الحب كالحزن فيه شيء من التصوف»....

6

مأساة الغربة في الوطن

عند خروجي من البيت، بيتنا في ضاحية تشرين، أحسست أنني أمشي نحو مصير مجهول ودعت الشباب الذين عانوا بسببي كثيراً. إنه التخفي، الذي لا مفر منه. وإلا فالاعتقال. وبدأت لعبة استخدام الأسماء المستعارة والانقطاع عن العلاقات الاجتماعية العلنية، واللجوء إلى الحياة السرية والقلق والعيش في عزلة شبه تامة. وبدأت مأساة الغربة في الوطن، هذا الشعور الذي يجعلك منفياً، ويحملك على الاعتزال والإقامة في صومعة تحول بينك وبين العالم الذي تعيشه. أول عمل قمت به، إستئجار بيت جديد، لا يعرفه أحد في المشروع الأول، أصبح الاعتماد على أمل أكبر، واقتصر الخروج مرتين صباحاً ومساءً من أجل أخذ التأمين، تمت مرة في العاشرة صباحاً بعد أخذ التأمين الصباحي والفطور، وحصل ما كنت أخشاه. تأخرت في النوم واقتضى الأمر الدخول إلى بعض الأصدقاء والبيوت من أجل تدارك الأمر وما يتبعه من إجراءات يمكن أن تكون كارثيّةً.

من لا يقبل السقوط... لا يمكن أن يسقط

الاعتقال الأول 1992/11/30 الاثنين العاشرة صباحاً

الموعد على موقف الغساني في القصاع بدمشق.

صباح الخير ردت تهامة صباح الخير. تحركنا بضع خطوات، انقض علينا مجموعة رجال وأمسكوا بنا مدعين أننا «حرامية» فصرخت عالياً: «نحن مناضلون ملاحقون، نحن في صفوف حزب العمل الشيوعي، لا للاستبداد و لا للقمع نعم لفلسطين نعم للجولان...» أكثر من ربع ساعة استغرق اعتقالنا من أكثر من عشرة عناصر أمنية . أدخلونا في سيارة بيجو بيضاء أنا وتهامة و ... بادر السائق قائلاً :لماذا فعلت هكذا؟ قلت له: أنت واحد متلكمتلنا. فرد الضابط « متله متلك بس هو مواطن صالح ووطني». قلت له والمسدس بيده فوق رأسي : «والله أنا وطني ومخلص قد منك مليون مرة». ظل ذلك الضابط، الرائد عاطف نجيب*(نعم عاطف نجيب نفسه، "بطل" أحداث درعا عام 2011 الذي عذب الأطفال وأهان أهلهم، والتي اندلعت الثورة السورية على أثرها بعد أن كانت الظروف عامة ناضجة لذلك) يهددني طوال الطريق الفاصل بين القصاع وفرع المدينة في الميسات وجهي على قدمي تهامة. أنزلوني أولاً إلى القبو. وبدأت المواجهة والتحدي الذي تدربنا عليه طويلاً. انتهى النظري وبدأ العملي. خلع الملابس وسط السباب والتهديد حفلة التعذيب بدأت أسماء التنظيم المواعيد البيوت، كان كل شيء جاهزاً: الرواية الأمنية ليس لي علاقة بالتنظيم. وليس لدي بيوت، أنام في الفنادق في المدينة، وفي المزارات في الريف. وأعمل في لم البلاستيك والألمنيوم والنحاس".

والشخص الذي وصلني بحزب العمل هو شاب طويل أشقر ، أسميه الأشقر ولا أعرف اسمه. علاقتي به ثقافية. تواريت عن الأنظار بسبب وفاة أخي الدكتور يوسف، أواسط 1988. استغرق التحقيق ساعات طويلة من ألوان العذاب وأدواته، حضر جولة التحقيق الأخيرة رئيس الفرع العميد: محمود عبد الوهاب. طلب مني رئيس الفرع أن أناديه "سيدي" فقلت له:

" لست عسكرياً عندك يا عزيزي!" هيجت كلمة "عزيزي" كلّ غرائزه الوحشية للقتل وفهمها كما تربى ! وأخذ العناصر يضربونني بالأحذية وأنا ممدد على "بساط الريح"، وكنت أنادي: " أنها ليست مرجلة أن تقتلوا أنسانا مربوطاً أمامكم. "لحظات غاب فيها صوتي وظلت تنهال ضرباتهم وتستحضر ذاكرتي قصص الشهداء الذين ارتقوا تحت التعذيب. كنت انتهيت من قراءة قصة استشهاد شهدي عطية الشافعي في سجن أبو زعبل عندما طلب منه الضابط أن يقول: "أنا امرأة" ،كان يقصد منها الضابط أن يجعله ينهار... فتحدى شهدي طلب الضابط وهو مرمي على الأرض وظل الضرب مستمراً حتى هبط قلبه و ارتقى شهيداً خالداً سيظل مناراً ومساراً للحرية على مدى الأجيال.

وتواردت صور الشهداء و أقوالهم سليمان غيبور الذي قال قبل استشهاده في الفترة الفاصلة بين اعتقاله يوم السبت 4/26/ 1986 و يوم الخميس 1986/5/1. "يجب ألا نعتقد أن السجن شيء أسطوري، وأن لا نخلق وهماً، حوله، أنهم يعذبون الجسد حتى الإغماء، ولكن في أقسى درجات التعذيب يبقى السجين واعياً لكل كلمة يقولها، ومن لا يقبل السقوط لا يسقط... لا يمكن أن يسقط". وتوالت صورهم محمد عبود شهيد الحزب الأول في 1981/12/9. وجمال ورفيق دربي وأخي الدكتور يوسف الذي قضى باكراً والذي أحسه يقف بجانبي ويحرسني منهم بوجهه المدور الجميل وعيناه الوهاجتين. أخي الذي يرتدي جسدي ويطلب مني أن أسافر. أنظر إليه وأطلب منه أن يسامحني... أبادله النظرات وأهمس له: إنني أذكر اسمك من أجل تخليدك وسجلت اسمك من اللحظات الأولى ودافعت عنك، وأنني أنفذ وصيتك ورفعتك علماً ومنجلاً ومطرقة محاطاً بالورد و طبيباً يداوي الجروح وأدافع عنك، وأعلن اتحادي بك إلى الأبد. غادرتَ بالجسد وبقيت كالجمر في عيونهم وكالسكين في حلوقهم.

يرتجفون... ويتبادلون النظرات عندما ألفظ اسمك و احملهم مسئولية غيابك الجسدي الأبدي. ويصرخون: نحن لم نقتل أحدا. سكون الليل و الماء البارد ودمائكم أيها الشهداء الأوائل والصمت، طلبوا مني النهوض فلم استطع حاولت جاهداً و لم أتمكن من الحراك أنا يقظ و صاح أعطي سالأوامر لكن جسدي الذي أنهكته ساعات التعذيب غدا كالجثة الهامدة، حملني عنصران ووضعاني في المنفردة رقم 6.

الشيء الذي أتذكره أنني همست لنفسي "انتصرت عليهم في جولات المواجهة الأولى". وكل ما كان يهمّني أن أتدثر بغطاء، أريد الدفء، والنوم طوال يوم الثلاثاء، وفي الصباح يطرق باب الزنزانة بشدة وتفتح الطاقة و يناولني رغيف خبز و بضع حبات زيتون أضعها جانباً وأنام، وعند الظهيرة والمساء يتكرر نفس المشهد، وأنا منهك القوى. لا اعرف في قبو أي فرع أنا.

وفي صباح 1992/12/2،يفتح الضابط الذي اعتقلنا الطاقة ويمد يده حاملاً "جواز سفر" ويشير إلى الصورة قائلاً: "هل هذا هو عضو ارتباطك..؟

لا...لا..! وبعد ذهابه تناهى إلى سمعي همسات وبعض الضحك، وقفت على شباك الزنزانة ونظرت إلى المنفردة الخامسة. كان يقف على شباكها شاب حليق الرأس، كان الشخص الأول الذي أتواصل معه .ما أسمك ؟ ـ "ثائر شامية" "قلت له نحن مجموعة،فرسم اشارتين على صدره دلالة على وجود نساء، هل جاءت فتاة جديدة ؟ ـ لا هي في المنفردة رقم 11.

وأخذت اعتمد على حواسي في التعرف على المكان ، لم استطع سوى أن أرى المنفردة رقم 5. كان الاعتماد على حاسة السمع. أصوات الأبواب وطرقها وصليل الحديد، الصاج، وأخذت أميز

بين انفتاح الأبواب القريبة والبعيدة وبدأت أميز بين خطوات العسس،الخطوات العادية، والخطي السريعة والقوية التي تستهدف زنزانة ما.

كنت أتهيئ كلما سمعت الخطى السريعة وأطوي طرف البطانية وأنزل رجلي، وعندما يفتح باب آخر ينعكس على حالتي ودقات قلبي الذي يزداد اضطرابه ودقه مع كل خطوة، ويخفت هديره عندما تموت الخطوة، وتصبح خطاهم في المساء أسرع وأقوى والتأهب دائم، والأسئلة دون جواب، هل هناك من جديد؟

وفي المساء مزق السكون صوت صراخ ناعم، مزق قلبي، لسعات الكهرباء، انهيار الكون، وتقصف كل القيم البشرية، ما هذا الجنون..؟! أنهم يعذبونها وينالون من الجسد، يعذبون "ليلى" (اسم الهوية التي تحملها تهامة). انفطر قلبي والتصقت أذناي بباب الزنزانة انتظر لحظة فتحها مهيئاً نفسي لمواجهة جديدة، كنت عازما لأقول لهم: "أن الغستابو عندما كانوا يعذبون النساء كانت الجلادات تقوم بذلك، أما أنتم... فأنكم تعرون نساءنا، وتعرون عقدكم..؟! كان ذلك مساء 12/3 1992 ...وفي الثانية عشر ظهر الجمعة اقتربت خطئ سريعةً و وثب قلبي وازداد خفقانه وتأهبي. المفتاح وطق القفل كطلقة مسدس، وصرير الباب الحديدي الوحشي كتقصف العظام ، كنت واقفاً. نادى العنصر قوم يا لله !

دخلت غرفة التحقيق والعصابة على عيني. نظرت إلى الأسفل وعلى الجوانب لأرى وجوههم. أزيحت الغيمة انبهرت عيناي، أمامي أشياء جديدة وأخرى قديمة، جهاز وآلة تصوير، وأكياس نايلون ، وحقائب شكلها ليس غريباً وأوراق تحمل أسماءً سرية وعلنية وعناوين منها: "حملة شتاء 1991-1992 - دروس ونتائج"،

و"الخطوة السادسة على طريق المصالحة .."مزيلتان باسم" صلاح عبد الفتاح إسماعيل".

باغتني المحقق قائلاً: "اعترف، قل هذه لك ..ويضحك.لا نريد قتلك فقط اعترف، الخط في المقالة هو خطك وطلب مني أن أقترب أكثر من الطاولة، قلت جازماً لا ..لا.. ليست لي! يحمل في يده ورقة يقرأ منه بعض الأسماء، هذه الأسماء، أسماء تنظيمكم: تميم ، وحسان و...! لا أعرفهم... لا أعرف أحداً ! ثم أردف قائلاً: أذهب الآن حتى المساء ، أنت لا تتكلم إلا بالكهرباء!

أعادوني إلى الزنزانة واشتعل ذهني وتوقد، ما الذي حصل، و ما الأمر..؟!

أمسكت طرف الخيط، وتسرب الهدوء ببطء، وازداد اضطرابي كلما اقتربت من معرفة حقيقة ما جرى ..!

"الزمن عجوز هندي وأنا أتكور كالمطعون "

يتقدم الزمن باتجاه الليل، وجيب قلبي يعلو وتظل أذناي مشدودتان إلى أي حركة... متأهباً يقتلني الوقت.

تأتي بعض الهمسات من الزنازين المجاورة.

صباح آخر جديد، الفطور... وبعد نصف ساعة يبدأ العمل، يتخيل ويتمنى أن يحصل ما لا يحصل ويتمنى أن يحدث في هذه اللحظات، خوارق، كأن يموت بعض الضباط... وألا يعودوا أبداً. أن تنقلب بهم السيارة... أو أن تلم بهم أزمة قلبية تقصف عمرهم!!

كلها مجرد أمنيات ورغبات معلقة بجناح مهيض ..

أتكور على نفسي، الماء يتساقط من سقف الزنزانة السادسة

هامساً" لم ينفذوا تهديدهم البارحة، أنه اليوم" الوقت ثقيل في انتظار المواجهة إنّها قادمة، المعركة لم تنته بعد، ولا بد من إيجاد طريقة لتمضية الوقت. فكرة جيدة لقهر الزمن، وبدأت بعدّ الكلمات التي أعرفها باللغة الإنكليزية، وعند الظهيرة في يوم السبت وبعد توزيع الطعام بقليل، يدخل المفتاح في القفل ويفتح الباب وكما العادة :"تعال"... الأسئلة و العصابة على العينين...

ويرن صوت الضابط الذي أمسكني في الشارع "عاطف نجيب" وأنهال علي باللكمات والضرب والأسئلة، كلها علامات على فشله وإصراره على الفشل وكان واضحاً أنه لا يستطيع الانتظار لحفلة المساء، إلى المساء والكهرباء...

7

لغة الحديد...

إلى الزنزانة، المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان، وأتمنى ألا أخرج منها، رغم عتمتها، ورغم ماءها المتساقط فإنها حنونة، أتلمس حروف جدرانها، وما حوته وسجلته أيدي مخضبة بالدم،أسماء عديدة ،وهج احتراق الأحرف مازال عالقاً بالجدران،أصابع وأظافر حفرتها،زينتها بالحمرة و زودتها بالحياة.

كم مر... عليك... وكم سيمر... صدرك واسع ..وامتدت يدي على جدار يمكن الكتابة عليه وخططت بقطعة حديد مزقتها من الشباك، وكتبت اسمي ووضعت الأحرف ح. ع. ش.

وأخذت يداي تخطان قصة الزائر الجديد بين الغداء والعشاء، وأهمس: «أنها طريقة لقتل الوقت أيضاً»

أقترب المساء... يزحف الوقت كسلحفاة و كإبرة طويلة تنغرز في الصدر في طريقها إلى القلب..

كنت كتلة واحدة تتحرك باتجاه واحد، أنتظر شيء واحد، وتأهبٌ واحد وقرار واحد «لا أعرف شيئاً... نعم قد أموت... لكنني سأصمد... سأنتصر... سأموت... الموت لا يخيف.

كخدر السكر بدا يتسرب... الموت... لقد مات الكثيرون... استشهد كثيرون وروت دمائهم جدران الزنازين ..وحدائق الزنبق ..والورد ليس أحمراً لولاهم..أنه في حمرة الخدود وشفاه الحبيبات.

في المساء كما توعدوا

لأول مرة بنفتح الباب وأشعر براحة لأنهم نفذوا الوعد بدون كلام، أقف في الممر ، تنتصب العصابة، أتقدم مع العنصر، وأنعطف نحو غرفة التحقيق، الغرفة التي أصبحت معروفة، تقف بالباب، إنها هي من بنطال الجينز، ويباغتني صوت المحقق : كيف يتم الاتصال مع الصحراء والوسط والجبل والبحر... أرد «لا أعرف شيئاً ..لا أعرف»...

عرّوه ..أخلع ثيابك ! أتعرى و وأربط على بساط الريح ويبدأ الضرب. هذه المرة بالكرباج لأن إحدى رجلي كانت منتفخة كلها فأخذوا يضربوني على الصدر والكتفين يعلو ويهبط الكرباج كرفيف حمام يسمع هفهفته، وكل ما أسمعه بين رفيفه وهفهفته ولسعاته ..اعترف ..قل من ..هم ..!!

أوغل في صمتي أكثر ويعلو صراخي أكثر. الجولة الأولى تتوقف. بدأ النط، وسمعتهم يقولون: «أنها تتعشى»... نصف ساعة قضيتها وأنا أنط على الحائط، ألمّ بي شبه دوار، وكلما طلبوا مني أن أخبط أكثر كنت أرفعهما بجنون ودون كلام، أجهز نفسي للقاء القادم، أدخلني شخص انحنى أمام سيده و دخلت رافع الرأس و أمرني أن أخفضه، فرفعته أكثر، رأسي فوق الجميع ولا يروق لهم ذلك المنظر، كانوا أربع ضباط ورئيسهم. فكلمة سيدي كانت تفوح من أفواههم، مليئة بالذل والخنوع ولا تخلو من سمات عصر العبيد..!!

هل أنت خريج جامعي..؟ رد الضباط جميعاً « نعم سيدي منذ عام 1986 ». أين كنت ..؟ كنت بين التواريخ المجهولة بين 1986 ـ 1992؟

كان سيدهم يقف وسطهم حاملاً كل نياشينه على صدره الكرباج و والحقد، والسباب والجنون.

أي يا سيد محمود نحن نريد منك أن تعترف، ونوقف الضرب وإلا ستموت... سنقتلك... إذا لم تتكلم...

الصمت لم يعجبهم، وأمر عناصره أن يدفعوني على الكلام. وكانت في أعماقي رغبة قوية لضربهم. والبصق عليهم..!

أمرني كل الموجودين... أجبت بصوت واضح مملوء بالعزم والتحدي: «قلت كل ما لدي وليس عندي شيء آخر».

انفرد سيدهم قائلاً: «أنت تكذب... أنت ...اجلبوا الشاهد...!».

ـ قلت له: «هذا كل ما لدي وإذا لم تصدقوا اصطفلوا...». أخذوا يتبادلون النظر فيما بينهم.

كل شيء كان واضحاً، يربط جسدي على بساط الريح ويقترب سيدهم ويساومني على الراحة وإنهاء التعذيب، ويطلب مني أن أقدم أسماء خمسة أشخاص فقط، ثم شخصان، وأخيراً شخص واحد، لذت بالصمت، فأضاف لماذا أنت خائف لن نجلبهم إلى هنا.

ابتسمت بصمت ثم قلت: لا أعرف أحداً ..! يأمرهم سيدهم قائلاً جروه للأمام، يجرون بساط الريح المحمل بالجسد، شعرت بالدمار ..! أنها المرة الأولى التي أقترب فيها من الطاولة ..فهمت .. لامست أسلاك الكهرباء الخصيتين، وطلب مني أن أتكلم، في رجاء يائس، صمت، وكان الموقف نفسه ..

يأخذ جميع العناصر أمكنتهم، بعضهم فوق رأسي ويحمل أحدهم قطعة شاش، وآخرون متأهبين، ويجلس المحققون الكبار على كنبات، وقرب أحد العناصر جهاز الكهرباء، وينتقل عنصر آخر بين الجهاز والأسلاك، وتغلق الأبواب، وتكتمل الفصول عندما همست لنفسي: «سأهزمكم ضباطاً وصف ضباط»!

ممدداً تحاول عيناي من تحت الغمامة أن تعرف كل شخص وموقفه وأذناي تسجلان كل حركة وأفسرها مباشرة.

الحواس كلها مستنفرة... وجاهزة...

على اليمين يقف سيدهم ويقود المعركة بنفسه، يأمرهم، رأيت رجله اليمنى ترتفع فوق بطني.

أنها معركة قاسية وحاسمة وقد تكون الأخيرة... لا بأس..! رجله ترتفع وحواسي تنقسم بين أسلاك الكهرباء والشحنات القادمة والصدمة، وفي نفس اللحظة تهوي رجله الثقيلة على معدتي وتسلل في جهازي التناسلي تيار كهربائي وحشي.

مزق صراخي الليل والهدوء، ثم عاد الصمت، وهدوء جديد وماء بارد، وترتجف شفاهي والكلمات، تخرج متكتكة كما أسناني.

يتسلل رئيسهم كأفعى بحقده :«قل أسمائهم ، بيوتهم».

لا أعرف أحداً، وتعود جلسة ثانية، وتهبط رجله بوحشية والتيار الكهربائي في أعضائي التناسلية، مرة ومرات، وكل ما أذكره لحظات ويزول كل شيء و خضّة قوية وارتجاف وماء بارد... و...

لحظات يقفز فيها القلب خارج الصدر، ويقف جسدي كل جسدي خارج جسدي، ويرتجف الكون وتهتزّ الجدران ثم تصمت، إنها لحظات سماع فقدان شخص غال وغياب الأحبة حينها تشعر أن قلبك غادرك..!

لحظات ويعود الهدوء، عالم اللازوردي، عالم الفراغ الذي تولده الصدمات، والشعور بالهبوط من علٍ إلى أسفل، لكنك خفيف كريشة طير تشدها الجاذبية، تتمايل مع النسمات، نسمات الهواء فتعلوا وتهبط يميناً ويساراً وتتدلل في هبوطها، لكنها أخيراً تهبط ..

ويقفز القلب وينط، وهمست بسري أنهم مصممون على قتلي!

ويصرخ سيدهم بصوت أجش: ستعترف... يعني ستعترف... ولو مت بحفض... راح اشلحك متل كلب عا الدرب...».

انفجرت في وجوههم كقنبلة موقوتة «عندما أموت تصرف كما تشاء!».

فهوى فوق جسدي غراب أسود، شبح ونقلت أسلاك الكهرباء إلى جهة أخرى، غفوت منتظراً المكان الجديد لحظات وبدون تردد شعرت أن بطني يحترق ورأيت شرراً يتطاير فوقي، وتجذب يدي اليسرى قوة للأعلى مرتجفة و أشعر بالتنميل في كلتا يدي... مرة... اثنتان... وصرخت وحوش... قتلة... يريدون قتلي مثل أخي يا أمي...»!!

يتوقف التيار وأتاني صوت رئيـسهم: «أيوه... أعترف... لقد سلموك... لماذا تعذب نفسك يا م ح م و د...في النهاية لن تستفيد شيئاً، كل ما عندكم نعرفه، سنجلبهم، لكن لا نريد منك إلا أن تعترف، فقط اعترف...

في تلك الثواني، أفقد توازني، وبين السكرات والدورات، وحالة الفراغ الرهيبة التي تولدها شحنات الكهرباء، بينها وبين الهزات والخوف من الجولة القادمة، كان يأت صوت سيدهم « سنقتلك « تتكلمش..!»

الآن وبعد أن ابتعدت تلك الأيام، ماذا بوسعي أن أقول؟ لعل العزلة التي وضعونا فيها لم تكن غربة تطال العقل وتعذبه فقط، بل كانت غربة تنتاب الوجود وتفتك به، لم نستطع أن نكتب نشيداً شاملاً، كما فعل بابلو نيرودا في عزلته بعيداً عن الناس، بالاستناد إلى هدف إبراز وحدة شاملة وعظيمة للعالم الذي كان يريد التعبير عنه، فكان كتابه الأكثر طموحاً «النشيد الكامل».

كنا هناك، نكتب نشيد الأمل، شهوراً عديدة من الانتظار، بعد أن فشل الجلاد في أن تعترف الضحية لينتهي التعذيب. وتواصلت عمليات

زرع المرارة، ومحاولات إنبات اليأس في الروح وتحطيمها، كما حاولوا تحطيم الجسد، حاملاً ندوبه، وآثار خرابهم. هناك حيث توحّد الزمان بالمكان وأصبح الفارق الوحيد هو توزيع الطعام بين الصباح والمساء.

عندما طلب السجّان منّي أن أجمع أغراضي، التفت حولي لا شيء..! بدا يومها القبو مختلفاً، كان يقف نعمان جانباً، تعانقت أعيننا،برهات عتب وإشفاق، ثم ابتسمنا، كانت الصبايا الأربع خديجة، فدوى، ضحى، وتهامة في القبو نفسه الذي ضمّنا شهوراً معاً، يقفن قرب حقائب متأهّبة ومتحفّزة.

أمضت خديجة و فدوى، سنة ونصف في نفس المكان، ومن اللحظات الفظيعة التي لا تغيب عن بالي أبداً، الكوابيس التي كانت تداهم فدوى، أم ماهر، لرؤيتها أطفالها الصغار، أحدهما في الخامسة والثاني في السابعة من العمر، فدوى سجينة عند أخيها ذو المنصب الأمني الرفيع الذي آثر أن يتركها في قبو فرع العاصمة. كانت تقول : لي ثلاثة أخوة، واحد منهم استشهد في الحرب، والآخر هاجر من الوطن منفياً، أما الثالث فهو... فدوى، التي تزوجت رجلاً من دمشق، وخرجت على العادات والتقاليد، وكسرت حواجز الخوف والطوائف، التي لا يقرّ بها القلب، ويأنفها العقل ونقلت هي وخديجة إلى سجن النساء لأنهنّ قد تحولن إلى محكمة أمن الدولة، و لم يرد أخيها أن تمر بفرعه الإداري، وبقيت سجينة هناك، حتى دخلتْ أمّها المشفى،فكانت الأم مدركة أنها على وشك الرحيل، كانت «الجوكندا» كما يسميها إبنها المنفي، والذي عاد لرؤيتها عندما مرضت، أو ربما لوداعها، لم يكن «للجوكندا»، سوى طلب واحد وأخير، أن ترى إبنتها فدوى، كانت عيناها تطلب ذلك من إبنها، سكت الكلام، وعيناها في وقيبهما تبحثان... وترجوان... فغاب الابن المسؤول ساعة أو أكثر قليلاً، وعاد بفدوى، وفي لحظة تصالح مع الزمن، القدر، تعانقوا... الأم والابن والابنة... وبكوا...

أما خديجة، فانضمّت إلى زوجها قيس، الذي التهمه السجن العسكري، وأصبحا متساويين، هي في سجن النساء وهو في سجنه الجبلي، لم ينجبا، وربما أنه من المتعذّر أن ينجبا بعد أن التهم السجن شباب العمر، ويتسلّى في قضم الأحلام، فالسجن عالم مدمر، مصمم على ألا يخرج من يدخله سالماً، وأن يحمل خرابه وتشوهاته ما بقي حياً! وحصل ما كنا نخشاه ونستبعده، أن تُقدم النساء والأمهات إلى نفس المحكمة، في سابقة رائدة لتحقيق المساواة بين الرجال والنساء يعود الفضل فيها للاستبداد، وتكتمل فصول المساواة في الحكم عليهن وتجريدهن من الحقوق المدنية والسياسية، ومنع السفر، واستطاعا خديجة وقيس، بعد خمسة عشرة عاماً على غيابهما القسري أن يكملا مشوار العمل والكفاح، محرومان من الإنجاب، ناجحان في عملهما الخاص بتقديم الخدمات الجامعية من نوتات، وتنضيد وغيرهما بالقرب من جامعة تشرين باللاذقية، مدينتهما، وكما هما جميلان يعطيان، لم تقصرّ خديجة في تشجيعي على مواصلة دراسة الحقوق في السنة الأولى والثانية، والمساعدة في تأمين المحاضرات المجانية، كم بودّي أن أقدم باقة ورد لكما، أيها الجميلان ولكثير من الأصدقاء الأوفياء، وأشعر كلما هممتُ أن أُقدم الورد، اصطدم بالحاجز نفسه الذي اصطدمَ به الطفل الذي جاء لزيارة والده بالسجن، وهو يحمل له وردة حمراء، من قريته الشمالية، مدّ الطفل الوردة، فتجاوزت الحاجز الحديدي الأول واصطدمت بالحاجز البلاستيكي الشفاف، أصرَّ الطفل على إيصال الوردة، فبكى الأب و انخرط الزوار بالبكاء.

أما تهامة طبيبة الأسنان، حيث اعتقلنا سوية في الاعتقال الأول في 1992/11/30، وأقلتنا نفس السيارة، واحتوانا الفرع الأمني نفسه، وخضعنا لجولات التعذيب، كان صراخُها يُقطّعني وفي الوقت نفسه كنت أزداد صلابة، صوتها ... وصراخُها،شجعاني على النكران والعناد إلى ما لا نهاية، فعندما أعطاني «المحقق» ورقة بيضاء لأكتب ما أعرفه، كتبت

بالطول من أول الصفحة إلى أسفلها «لا أعرف شيئاً» مزّقها الضابط، وأعطاني أخرى، ففعلت نفس الشيء، ثم ثالثة وفعلت نفس الشيء، كنت أريد أن أتحدّاهم، لينسوا وجود تهامة نهائياً، فقدَ المحقق أعصابه... فرموني على الأرض، ربطوا أسلاك الكهرباء بالخصيتين... حاولت كظم الصرخات... مرة ومرات... حتى فقدت الوعي، وانشغلوا بصب الماء، واحتواء القشعريرة التي اجتاحت جسدي كقصبة ترقص في مهب تداهمها الريح من كل الجهات، وأغلقوا الأبواب، وجاء الطبيب ففحصني، والخوف يتسرّب من سماعته، ويتلو قلبي نشيد التحدي، كنت فرحاً لأنني شغلتهم...

تهامة، القوية والشجاعة، كان أسمها مها، طالبة الهندسة الكهربائية، فعرفت أنها طالبة طب أسنان لاحقاً، ثم طبيبة، هي الأخرى تتزوج من الرفيق بكر في حلب، وتتخطّى حواجز الطائفية، كان بعض المقربين منها يحاولون تخفيف وقع الأمر، على بعض من يهمهم الأمر من الأقارب في ذلك الزواج، وعندما يُسألون يقولون أسمه بدر، كادت تقول بل أسمه بكر.

بكر الشاب الذي التقيته في سجن العاصمة، (بعد أن نُقل مع مجموعة حلب لرفضهم شروط عفو سنة 1991 المذلّة، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً...) من حلب، ثم إلى دمشق والسنين الأخيرة في سجن تدمر، أنجبا طفلهما الأول قيصر، وربما أكثر الآن، وكان بكر مضرب مَثل بالعناد، حيث كان يرفض تنفيذ أي أمر، طالماً أنه يأتي من جهات الأمر، حتى في سجن تدمر، حيث الطاعة تامة، رفض مَرّة أن « يُهوّي» المهجع، طالما أنه أمر.

أمّا ضحى، التي اعتقلت بعد أشهر من اعتقالنا، كانت حامل بابنتها البكر «ديانا» حيث أكملت حَملها في سجن النساء بدوما، وأنجبت ديانا

هناك، وظلّت فيه حتى أصدروا قراراً بفصل الطفلة عن أمّها، لتؤجل الأمومة إجبارياً، كما حصل مع « ماريا « ابنة الرفيق بهجت شعبو، حيث أنجبتها أمها السجينة السياسية رنا، في عام 1988 كما أعتقد، «ديانا» أصغر سجينة، ترافقنا مشوار الطريق إلى المحكمة،جنيناً، ثم رضيعاً، نتبادلها في سيارة الميكرو مع أبو مازن، هرّبنا في ثيابها رسائل لأمها من خالها السجين أسامة، وبالطبع من دون إذنها، وكما كانت ديانا وماريا ثمرات حب، غير عادي، في ظروف استثنائية، تخطّى كل الحواجز، جاءتا رغم كل المعيقات، وربما المحاولات بألا تأتيا، استبسلت رنا، في الحفاظ على ماريا، رغم ما جرى معها، من محاولة إجهاضها، فرفضت وحَمّلت مسؤولية ما يجري لحِملها لرئيس الفرع آنذاك... و... و... كم آلمني ذلك.

أخذ أبو ماريا يبحث في صيدليات دمشق، عن الحليب ليرسله لابنته البكر إلى سجن دوما عام 1988و 1989، وأبو إبراهيم الذي خرج من السجن ليتابع زيارة زوجته وابنتهما البكر ديانا، خديجة ،وندى وتهامة والأصدقاء الجميلون، أتحدث عنكم الآن دون إذنكم، فأخشى أن أنتهك حرمتكم، وحرمة من أكتب عنه.

أكتب عن هذا الماضي وأنا الآن في مكان يستحيل فيه أن أطلب إذنكم، وأنا لا أكتب هذه الذكريات للتذكير فقط، بل كما قال غراهام غراند: «بهدف تثبيت الحاضر وامتلاك حركة الزمن، وأنها محاولة لامتلاك الماضي بشكل حيّ».

استخدمت عند كتابة الجزء الأول من روايتي «خلية آب/مطر الغياب» أسماء مستعارة في فترة الملاحقة والتخفي، أما الآن فإنني أستخدم الأسماء الحقيقية الأولى، فحكاية بحثنا عن الحرية لم تتوقف، ولم يصل الحلم إلى منتهاه، وكل ما أقوم به الآن أن أقدم شهادة مفتوحة عن بشر ناضلوا في

أوقات صعبة جداً، ورغم السجون والعذاب ظلّوا يناضلون.

وأرجوا من ماريا وديانا أن تسامحاني.. !

وكما العادة، يطلب الجلاد من الضحية أن تسامحه، طلب منّا رئيس قسم التحقيق في فرع العاصمة، أن ننسى تلك الفترة قبل صعودنا في سيارة الأستيشن نحن الأربعة، ضحى، تهامة، نعمان، وأنا...

كانت الشمس تضحك، آه ما أجمل الشام وما أروع الضوء، آنذاك عرفت أننا خرجنا من فرع المدينة، ودارت السيارتان حول دوّار الميسات، وسمعت رئيس الدورية يقول للسائق «على فرع التحقيق الإداري». فالتفتُّ نحو الصبايا فكان الجواب على السؤال بسؤال.. ! دخلنا قبو الفرع، وضعوا السلاسل بأيدينا، وركبنا ميكرو خرج من الفرع إلى شارع الثورة، ثم انعطف إلى اليمين، بعد تقاطع شارع الثورة وشارع بغداد. إذن إلى محكمة أمن الدولة، أعادونا إلى الفرع نفسه، وقضينا تلك الليلة هناك، في زنزاناته. وفي اليوم التالي إلى المحكمة ذاتها، سجّلوا أسماءنا في ديوان المحكمة، إعلاناً ببدء محاكمتنا مع الرفاق المناضلين الذين سبقونا، في سابقة خطيرة، محاكمة المناضلين الوطنيين الديمقراطيين أمام محاكم استثنائية. كنا عَطشى للحديث بأي شيء بعد تلك الشهور اللعينة، وتذكّرت قول «ساروت» إن الناس يجمعون على ضرورة الاتصال بالغير، لأن يحس الناس بوجودهم. حيث أصبحنا على مدى شهور، مجرد أحرف وأرقام، بعد انتهاء التحقيق، مثل شخصيات كافكا...

8

ولكم في الحياة قصاص يا أولى الألباب

ركبنا نفس الميكرو إلى سجن العاصمة المركزي، وفي الطريق أنزلوا ضحى وتهامة سجن النساء بدوما، المسافة بين السجنين قصيرة، أقل من عشر دقائق، دلفنا الباب الرئيسي الذي تعلوه الآية القرآنية، ثم الثاني، والثالث فالرابع، ثم إلى الطابق الثاني في مبنى مربع الشكل، سجّلوا أسماءنا، وفكوا القيد من أيدينا، ووقفنا نصف ساعة نلتقط تفاصيل المكان، ثم فتحوا لنا باب غرفة قبالة غرفة الضابط تُدعى الصالة «تحولت إلى زنازين لاحقاً»، هبّ نزلائها لاستقبالنا، كان اللقاء حاراً، القبل والضم والضحك، إنهم الأصدقاء الذين اعتقلوا مع ندى وخديجة، والعم جريس أبو يوسف، المدرس المتقاعد الهادئ، وأحمد معتوق أبو محمد الأخ الناصري الشعبي ذو الشارب المفتول، ومروان غازي أبو حسن الأخ الناصري الآخر صاحب النكتة الظريف، وأحمد حسو أبو شهاب الشاب الكردي الهادئ الذي اعتُقل بسبب مجيئه صدفة في تلك الليلة إلى بيت صديقه سلامة كيلة منتشياً، لذلك كان سجنه الأسهل والأقل مدة بيننا،

ثلاث سنوات نقط، أما سلامة جورج كيلة أبو علي، الذي اعتُقل على خلفية علاقته بالمعارضة، فكلّفته تلك العلاقة ثماني سنوات من الاعتقال في الفرع وسجن العاصمة ثم أكمل سجنته في سجن تدمر معاً، تزوّج من السجينة السياسية السابقة المهندسة ناهد، خرج من الأرض المحتلة، فالأردن، ثم دمشق. وانتهى به المقام إلى السجن.

بعد الغذاء، طلب منا الشباب أن نختار أسماء نُنادي بها، فأختار نعمان أسم «حسين» وأصبح من يومها يُنادى بأبي حسين، وعندما جاء دوري، تمهّلت نليلاً، وقلّبت الأسماء السرية العزيزة التي استخدمتها أثناء التخفّي، فاخترت أسم «نجم» الاسم الحركي لأخي الدكتور يوسف الذي سافر إلى لينينغراد ليكملْ دراسته، فلم يستطع أن يعود إلى البلاد حيّا فعاد ميّتاً عام 1988.

أقمنا في الصالة عدة أيام حتى وزّعونا على الغرف في الجناح الثاني، أبو علي وأبو شهاب في الغرفة (2)، وأنا ونعمان في الغرفة (4)،والأخوان الناصريان في الغرفة (6)، أما أبو يوسف ففي الغرفة (8).

دخلنا الغرفة(4)، فكان معظم النزلاء فيها من الشمال، استقبَلنا الرفيق أسامة، شقيق ضحى، وكان في الغرفة مجموعة رفاق من المكتب السياسي، أي (الحزب الشيوعي السوري-المكتب السياسي) من بينهم عميد السجناء في الغرفة،ياسين الحاج صالح، ثلاثة عشر عاماً، وعمر الحايك، وحكمت مرجانة (أبو فادي)، وعبد الله قبارة (أبو نجم) الذين اعتقلوا في حملة 1988 في حلب، ونُقلوا إلى دمشق مع الآخرين لرفضهم شروط المساومة المذلّة، أما البقية فكانوا محسوبين على بعث العراق، ومنهم حسن النيفي طالب اللغة العربية، والمعلم إبراهيم اليوسف،والأخوان دُرُّج، والأربعة من «منبج»، وأحمد حمادة خريج التجارة الآتي من العراق، ومحمود الحسين كذلك الأمر.

كنّا في مستهل سجننا، وكانوا في آخره، ولو نظرياً إذ مضى على اعتقالهم سنين طويلة. ثم التقينا بالأصدقاء القدامى والرفاق: صفوان عكاش، مازن شمسين، عمار رزق، محي الدين شنانة، د.راتب شعبو، بسام بدور، عزيز تبسي، فراس يونس، بكر فهمي صدقي، تيسير حسون، خلف الزرزور، معتصم رافع، حبيب معلا، أديب الجاني، وحسين السيبراني ... كانوا جميعاً في الغرفة (10) إلا الحارث النبهان، وماجد حبو، كانا في الغرفة (2). ودخلنا في أجواء السجن شيئاً فشيئاً، وكما يقال « استحْبَسْنا « وانخرطنا في عالم السجن ... القراءة، الرياضة، السخرة، والتعلم والتعليم والانزلاق بالأعمال اليدوية من مسابح الزيتون والخرز وأعمال النحاس.

إن همّي هو الحديث عن وقائع السجن وعذاباته، وليس الحديث عن صراعات الرفاق والسجناء والزملاء داخل السجن، وحساسيات التنظيمات التي تعرّضت لشتّى الملاحقات، وصلت على حد تحطيم الجميع، أو الانكفاء إلى حد لا يخيف، ووصل الأمر ببعضها إلى حل التنظيم. وبالمقابل لا أقصد تمجيد أنفسنا والظهور كأبطال بلا أخطاء.

الزيارة الأولى

خمس سنوات وأكثر من الانقطاع التام عن الأهل، لم أر منهم أحداً طيلة تلك الفترة إلا محمد الذي دخل جامعة دمشق، طالباً في كلية الحقوق.

وقف والدي بقامته المعتدلة، ينظر بعينيه الحمراوين، يفصل بيننا الشبك، شبكان من الحديد البارد، ثم قال بعد صمت : هل أنت واقف على رجليك؟ عدتُ خطوتين للوراء، جاءت أختي نهلة، تحمل بين يديها ابنها البكر، قالت: طلبوا مني قبل الامتحان العملي بيومين، في معهد المراقبين الفنيين الذي كنت أدرسه، أن أُسلّمك، وإلا..!! وهكذا فصلوني

من المعهد. وأطلقوا رصاص حقدهم في قلبي، ونلت حقوق « مواطنيتي » وأخذوا يشيعون «بأنك أنت السبب» وفرّتْ من أعينهم دمعتان، فرح... وحزن... لأنهم عندما التقينا، تذكّروا أخي الدكتور يوسف.

ثم كانت الزيارة الثانية لصديقتي حيث لم يكن بيننا رباط رسمي، ضبطت هويتها معي، ودوّنت من الموجودات، وخبأتها في قلبي، وأنكَرْتُ معرفتها في كل مراحل التحقيق والاستجواب أمام المحكمة، لم تستطع أن تزورني باسْمِها الحقيقي، فكانت مضطرّة أن تزورني باسم أختي، تزوجنا بعد خروجي الأول من سجن تدمر بشهرين.

جاء أخوتي الصغار، شباباً قبالتي، ينهكهم الحزن والخوف بالمزيد من الانتقام لأنهم أخوتي، مذعورين، سنين من القهر، لم يمنحهم المنزلُ أمناً، و لم يستطع الأب المفجوع أن يمنع زوار الليل، أو يمنعهم من اعتقال صالح، ونهلة التي كانت حينها طالبة بكالوريا، واظب أخي نزار على الزيارة، متحمّلاً المشاق بكبرياء، حتى نُقلنا إلى سجن تدمر وانقطعت الزيارة ثلاث سنوات، استمرت حتى خروجنا عام (2000).

المحاكمة

المادة العاشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

«لكلّ إنسان الحق على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تُنظَرْ قضيته أمام محكمة مستقلة ونزيهة نظراً عادلاً وعلنياً...».

كانت لائحة اتهام نيابة أمن الدولة، تستند على اتهامنا بارتكاب جنايتان: جناية الانتساب إلى جمعية سرية تهدف إلى قلب كيان الدولة، المادة 306 من قانون العقوبات بدلالة المادة 304، أي استخدام وسائل إرهابية لتحقيق ذلك الهدف، بالإضافة إلى جناية مناهضة أهداف الثورة

في الوحدة والحرية والاشتراكية. وتهمة عرقلة تطبيق الاشتراكية، للقياديين منّا، والتي تصل عقوبتها ... الإعدام ... !!

المحاكم الجزائية الاستثنائية

هكذا يُحوّل المناضلون السياسيون الذين استثنوا في عفو 1991، والذين رفضوا شروط المساومة على المحاكمة في ربيع 1992، إلى محكمة أمن الدولة، التي نص مرسوم تشكيلاها رقم (47) تاريخ 1968/3/28 على أن تمارس مهامها في مدينة دمشق أو في أية مدينة حسب مقتضيات الأمن، وذلك بأمر من الحاكم العرفي، ولرئاسة المحكمة الحق في عقد جلسات المحاكمة في أي مكان تراه مناسباً، ويجوز عند الضرورة إحداث وتشكيل أكثر من محكمة أمن دولة، ونصّت المادة السابعة من المرسوم المذكور، على أنه مع الاحتفاظ بحق الدفاع المنصوص عليه في القوانين النافذة، فإن محاكم أمن الدولة لا تتقيد بالإجراءات الأصولية المنصوص عليها في التشريعات النافذة وذلك في جميع أدوار وإجراءات الملاحقة والتحقيق والمحاكمة، كما أنه لا يجوز الطعن بالأحكام الصادرة عنها، ويصدّق عليها بقرار من رئيس الدولة، ويشمل اختصاص هذه المحاكم جميع الأشخاص من مدنيين وعسكريين مهما كانت صفتهم أو حصانتهم

ومن الناحية الموضوعية فإنها تختص بالنظر في الجرائم المنصوص عليها في المادة الثالثة من المرسوم التشريعي السادس رقم (6) الصادر بتاريخ 1965/1/7.

هكذا يجول المناضلون أمام المحاكم الاستثنائية التي لا تحتاج إلى أية أدلّة، ويحاكم الشيوعي السجين بأنه ضد الحرية والوحدة والاشتراكية. ومع ذلك فإن كلمة «محُاكمة» أو «محكمة» والمثول أمام محكمة، رغم كل ما يحيط بها، فقد خلق لدى غالبية السجناء شعوراً، بعد أكثر من عقد

ونيّف على اعتقال البعض، بأن الملف في طريقه نحو الحل وهذه خطوته الأولى. وبالغ البعض منا في تفاؤلهم، وربما في أمانيهم، أن تكون المحكمة والمحاكمة سبيلاً يتجنّب النظام فيه الحرج الذي سبّبه الاعتقال السياسي للآلاف..!!

وبان مدى إحراج النظام، عندما صدرت الأحكام على المجموعة الأولى من رفاقنا في سجن صيدنايا، والتي وصلت إلى خمسة عشر عاماً واثنان وعشرون عاماً للدكتور عبد العزيز الخير، سقطت الرهانات، وانكشف دور المحكمة ووظيفتها، وشاع بيننا جو من الإحباط، لم تبدّده الأحكام التي صدرت ببراءة أعضاء التنظيم الشعبي الناصري بعد مرور سنوات طويلة من الاعتقال، دَعونا إلى اجتماع مفتوح في الغرفة (10) ترأسته أنا لكوني آخر الوافدين، وتوافقنا على عدد من النقاط، توّجَتْ بإعداد بيان لمقاطعة المحكمة، وتم تكليف لجنة صياغة، خرج أخيراً تحت عنوان «بيان مقاطعة للمحكمة غير الدستورية والاستثنائية» لاقته هيئة المحكمة باستهزاء في البداية، ثم بتوتر ملحوظ عندما كنا نخرج أمامهم ونتلوا العبارة الشهيرة. إننا نقاطع محكمتكم العرفية والاستثنائية التي لا نقرُّ بها ولا بأحكامها ونطالب بتحويلنا إلى قضاء مدني وعلني، وقاطع المحامون المحكمة بدورهم، فكلّفت نقابة المحامين بدمشق مجموعة من المحامين المسخرين.

وكانت محاكمتنا مثل محاكمة (كافكا)، حيث لا يبدي أحد أدنى اهتمام بحل القضية، لكننا أمسينا أكثر تأكيداً على حقوقنا.

9

من آثار المحاكمة

قبل صدور الأحكام كان مصير الجميع واحداً نظرياً على الأقل، متوقف على صدور عفو رئاسي كما يحصل سابقاً، أما الآن فالأمر قد اختلف، فإن هذه المحكمة التي قاطعناها بتحد بطولي، وموقف يستحق أن يُبرز ويُحترم، قد بدأت تفرّق بيننا، عبر الإحساس بالزمن، وبالتالي أصبح السجن مختلفاً في وطأته بين من بقي لديه سنة لانتهاء حكمه وبين من لديه سنوات وربما عقداً أو أكثر، وبالتالي أصبح الإحساس بالسجن مختلفاً، وأخذ عصاب العدّ يتسرب بيننا، كم مضى وكم بقي وكم ... وكم ... ؟؟؟ فالمجموعة الأقدم التي اعتُقلت في أواخر عام 1980 من الرفاق في المكتب السياسي بقي لديهم شهور، رغم أنهم قد أمضوا خمسة عشر عاماً بين الفروع الأمنية وسجن الشيخ حسن ثم سجن القلعة حتى حطّ بهم رحال السجن إلى سجن عدرا، وفي المقلب الآخر كان منا من اعتُقل في أوائل التسعينات، وحُكم عليه بخمسة عشر عاماً وبقي لديه عقد أو أكثر من فترة الحكم، كان منهم مازن وعمار، أما نحن المجموعة الأخيرة فما زلنا قيد المحاكمة، وما زال مصيرنا يلاقي سحباً مفتوحاً، ومهما

كانت المدة التي مضت، فإنها قد انقضت، فالأمر الأهم هو كم بقي ...!

ولما كنت آخر الواصلين إلى عالم عدرا، تجنبت الخوض في غمار الزمن ومنغصاته، وقررت أن أعيد دراسة البكالوريا في العام الدراسي 1995/1994 أنا وعزيز تبسي ومحمد علي الكردي، حيث نجحنا، وسجّلت أنا ومحمد في كلية الحقوق وسجّل عزيز أدب فرنسي.

وها أنا الآن، وأنا أخط هذه المذكرات، أتقدّم للامتحان من السجن إلى كلية الحقوق جامعة دمشق، سنة رابعة، لم يسمح لي آنذاك خوض الامتحانات وفُصلت من الجامعة، حتى أُفرج عني في تشرين عام 2000، أعدتُ التسجيل في الجامعة، ودرست السنتان الأولى والثانية وأنا طليق. ثم دخلت إلى السجن عام 2006 لأكمّل دراستي وأتخرّج بإجازة حقوق، ويقف في وجهها قانون الطوارئ، وحكمان، ومجموعة جنايات.

كادت فرصة إعادة البكالوريا تضيع، عندما حضرت رئيسة منظمة رقيب الشرق الأوسط لحقوق الإنسان محاكمتنا في 1995/4/30. كانت فرجينيا شيري كما أذكر، قد حَصَلتْ على موافقة لحضور محاكمتنا من الجهات الرسمية، تفاجئنا بها ونحن في قفص محكمة أمن الدولة العليا، تقدّمت سيدتان، وأعطتنا بطاقة. حاول الضابط رئيس المفرزة أن يبقى ليسمع ما سيدور من حديث، وعندما سألته فيرجينيا عبر المترجمة، عن سبب وجوده هناك، أجاب : «بأنه أخي» ـ فقلت لها : أنه رجل بوليس. فكاد يجن جنونها ودفعته بصدره حتى آخر الدرج، حاول الضابط أن يرسل أحد العناصر الذي وقف بجوارنا، فسألته أيضاً من أنت ...؟ فقال لها : بأنه من زوار نعمان ... فأنضمّ إلى مُعلّمه.

وجاء مجموعة أخرى من رفاقنا في سجن صيدنايا، منهم أكرم البني، (الموقوف الآن في نفس السجن). تآزرت حينها عناصر الشرطة العسكرية والأمن وشكّلوا ستاراً لإدخال المجموعة إلى مطبخ المحكمة

لكي لا تراهم اللجنة فأحبطت خطّتهم، عندما صرخت أنهم يريدون تخبئتهم...! فانتفضت فيرجينيا، وجلبتهم واستمعت مطولاً إلى أكرم، الذي كان نزيلاً في سجن تدمر، كان الضابط يرغي ويزبد ويهدد ويتوعد من مكانه. طلبتْ مني فيرجينيا مقابلة رئيس المحكمة فوافقتُ، دخلت فيرجينيا تستأذنه، فأنقضّ عناصر الشرطة العسكرية واختطفونا من القفص إلى الميكرو الواقف أمام المحكمة، الذي أنطلق بسرعة إلى الفرع الإداري، لم يكن العقيد هناك، فأكمل الميكرو طريقه نحو سجن دوما حيث أنزلوا ضحى، ثم أكمل بنا إلى سجن عدرا.

وفي اليوم التالي الاثنين 1995/5/1 يوم العيد العالمي للعمال، جاءت صديقتي لزيارتي(زوجتي الآن) حيث كانت تزورني بأسم أختي على الشبك العام، كان يسير خلفي عنصران من الأمن، وبعد انتهاء الزيارة ووصولي إلى الجناح بدقائق، طُلبتُ إلى المفرزة، وقف المرحوم رضا حداد، وقال : «كلنا وراءك» ... وضعوا الأصفاد في يدي للوراء، وذهبنا في سيارة المرسيدس الحمراء، ساد حوار الصمت بيننا، حتى وصلنا إلى الفرع، يوم عيد العمال العالمي، يوم عطلة، أنقذني المساعد محمد من دولاب (وسيلة تعذيب)، وتم إيداعي في الزنزانة رقم (12). لم يطلبني أحد في ذلك اليوم، وفي مساء اليوم الثالث، فُتح باب الزنزانة وأخرجني أحد العناصر من القبو إلى فناء الفرع، حيث كان ينتظرني نفس الضابط على درج مكتب العقيد، وقال لي حرفياً : اعتذر كي تعود إلى (عدرا)..! انفتح باب خشبي عريض، وقفت بجوار الرائد، أنظر خارج الفرع من الشباك المقابل، كان الحوار متشنجاً في البداية، لم يخلُ من التهديد، قلت له عندما طلب مني بدوره أن أعتذر : لو أخطأت لكان لي كامل الشجاعة للاعتذار، وعرفت أن الشباب في السجن قد طلبوا من الرائد حل المشكلة، وأعادوني إلى السجن، قبل أن يتطور الموقف ويتّخذ الشباب خطواتٍ تصعيدية.

في أوائل خريف 1995 بدأ معتقلو عام 1980 الخروج من السجن بعد خمسة عشر عاماً، كان في طليعتهم المناضلان عمر قشاش، والدكتور أحمد فايز الفواز، اللذين خرجا في نفس يوم انتهاء حكمهم تماماً. وتوالى خروجهم حتى تاريخ 1995/11/22، تاريخ مساومة العفو الصادر في الذكرى الفضية للحركة التصحيحية، كانت الشروط واضحة، لخّص صفوان الموقف قائلاً للجنة : إذا أردتم أن يخرج أحداً فخفّفوا من شروطكم...! خرجت اللجنة الأمنية المؤلفة من ثلاثة ضباط كبار بانطباع سلبي، و لم تخلو المساومة من بعض المماحكة. كان الرأي واضحاً لدى الغالبية، طالما نحن في السجن، فنحن ملتزمون، وأخذوا يوجّهون أسئلة استفزازية تستبطن موقفاً مشككاً، قالوا للدكتور راتب شعبو ... لنفترض إن أنزالاً عسكرياً إسرائيلياً قد حصل على شاطئ البحر أو بجوار قريتكم، فهل ستبلّغ عنهم؟ أجاب الدكتور راتب: عندما يحصل ذلك فسأعالج الأمر دون انتظار أصحاب الشعارات.

كان عادل أحمد، آخر المُفرج عنهم، وقبل وصول اللجنة بيوم واحد، حيث خرج دون مساومة، و لم يبقى من معتقلي عام 1980 سوى ياسين الحاج صالح الذي خضع لنفس الشروط فرفضها، حاولوا أكثر من مرة، وأخذوه إلى الفرع، وهددوه بالنقل إلى سجن تدمر، فرفض، ونفذوا التهديد، وقضى هناك عام آخر بعد الخمسة عشر عاماً ...عام واحد ... لكنه دهرٌ بلغة العتر.

الرحيل إلى سجن تدمر

بدأ عام 1996 كئيباً لنا، تلقينا نبأ وفاة كريم وهو ينتظر خروجه إلى الحرية، فذهب على العالم الآخر.

وفي صباح 1996/1/3، أيقظونا باكراً، قبل الخامسة صباحاً،حزمنا الأغراض المدنية كلها، ثلاثون أسماً، نفس اللذين تعرّضوا للمساومة في

1995/11/22 ونفس الترتيب دون استثناء، ولا تمييز.

بدأ يتّضح كل شيء وينقشع ضباب الذهول، حمل الشباب الحقائب على ظهورهم، وكان آخرهم عمار الذي يجر نفسه، لأنه كان مريضاً، و لم نعد نسمع نحن الثمانية المستثنون سوى رنين السلاسل وتلويحة الأكف وصدى أصواتهم، ووقع أقدامهم ... وساد التوجس ... والصمت.

ثلاث سنوات وأكثر مرّت لم أشعر بها، و لم أعاني قسوة تشبه ما أشعر به، المهاجع فارغة، ما أبشع هذا المكان، أحس بوحشته، وكرهه، إنه السجن.

وحصل في صباح اليوم التالي، وكان يوم الخميس، فرزٌ جديد، جاء رئيس الفرع في الساعة الحادية عشر صباحاً، كان لقاءً استفزازياً وعاصفاً، هل أنتم مثل رفاقكم ..؟ سنلحقكم بهم، وكل من جادله عَزَله، ثم قال : من هم الشيوعيون؟ فرفعنا أيدينا، فقال : اعزلوا كل واحد منهم في غرفة، ودعوهم ينتظرون على كيفهم ...!!

ثم سحب جميع الامتيازات، أصبح الأكل في المطعم،وأصبح كل شيء بلا طعمة، وحده الدخان يعبق في سماء المهجع، نحن الثمانية، ستة منا يدخنون بشراهة، واستمرت الأيام تطوينا في جوفها، وتدور بنا في حلقات أشد سواداً وأكثر تعقيداً، وكلّما أطّل بصيص أمل، حدث انهيار فوقنا، وبدأ الخناق يضيق، حتى الهواء الذي كنا نستنشقه في الباحة مُنع عنا وأصبح مقنّناً، نصف ساعة كل يوم، وزّعونا في الغرف واحداً، واحداً، نحن القدماء، ثم وزّعوا النزلاء الجدد على الغرف.

حالة الرحيل حالة خاصة في السجن، تراجعت الخصومات والعداوات ليحل محلها حالة من الحزن، الحزن الشفيف، الأقرب إلى الأنين، أما نحن الذين لم يصادق نائب الحاكم العرفي على أحكامنا بعد، انتظرنا سنتان على سفر المجموعة الأولى كي نلحق بهم في 1998/6/24. وتوالت

قوافل السجناء الجدد، غالبيتهم من الأصدقاء الأكراد في حزب «يكيتي» ومن التركمان، وجاء التركمان ومثقفيهم، أطباء ومهندسين، خيرة مثقفيهم باللاذقية، خضعوا لشروط وأحكام قاسية، إذ وَقعتْ نتائج سوء العلاقة بين سورية وتركيا على رؤوسهم. منهم تركمان درسوا في تركيا، ولا يزال هناك الكثير منهم يدرسون في تركيا، وأصبح الأكراد السوريين، والتركمان، والأكراد من أنصار (أوجلان) تحت سقف سجن واحد، وعلى حلقة طعام واحدة، أقمنا علاقات إنسانية رائعة، وبقينا نتقاسم اللحظة حتى نُقلنا إلى سجن تدمر في 1998/6/24، كانوا في عزاءٍ حقيقي، وكنا الجنازات التي تحيا موتها، كان الصمت مطلقاً، فالحركات عصبية، تحاول العيون أن تهرب، فضحتها الأصوات، وملأ الحزن القلوب وأرجاء المكان.

في الطريق إلى سجن تدمر

كأنه زمن لم يبقَ فيه سوى الاستخفاف بنا، ونحن على الطريق الصحراوي، اجتاحتنا الرغبة «بالتبوّل»، توقّف الميكرو الذي يقلّنا على مفرق الطريق المتفرّع إلى اليسار، نزلنا نجرجر الجنزير، ابتعدنا عن الطريق العام في الأرض القاحلة، توقفنا وتوقف وراءنا عناصر الدورية مدجّجين بالسلاح والجعب المليئة بالذخيرة، فككنا السحابات، خمس دقائق عصيبات، على يميني يقف نعمان، وعلى يساري أبو يوسف، أحسست بالمرارة الفظيعة على الرفيق جريس (أبو يوسف)، رجل في أواخر العقد السادس من عمره، ثم أغمضت عيني، صعدنا إلى الميكرو، ومرة أخرى عاودتنا الرغبة «بالتبوّل» ..

أطلّت المدينة باهتة يكسوها الغبار من آثار معارك الماضي، أما القلعة الرابضة على مدخلها تقف حزينة تأنف ما أدخلوه عليها من إصلاحات تبدو غريبة عنها.

دخلنا كغرباء وأسرى، لم يلفت نظرنا أوابدها، و لم تكترث بنا، القلوب مترعة بالأسى والألم والقلق في مدينة أشباح بلا قلب. لم يستطع أحد المعادين معنا ضبط نفسه، لهول ما ينتظره، نزل من الميكرو وقضى حاجته.

عصبوا أعيننا، ووضعوا رؤوسنا في الأرض، نردد في أعماقنا العبارة الواردة على مدخل سجن تدمر .. «الداخل مفقود والخارج مولود»، كنت حينها أجري مقارنة بين هذه العبارة وتلك التي أوردها (دانتي) على باب الجحيم «أيها الداخلون خلفوا وراءكم كل أمل».

واستلم كل منا، واحد من العناصر يجره من نقرته، نحملُ أغراضنا، أكياس اللباس، والحرامات التي جلبناها معنا. وأدخلونا واحداً واحداً في باب ضيقٍ واطئ، وسط السباب والشتائم، وركعنا على ركبنا، والنعرات تنهال علينا، غابت عين الوجه المحدودة بالمكان، وعين العقل التي غيّبوها، ظلّت وحيدة عين القلب، هي البصيرة التي لا حد لها، تواصلنا روحياً نحن الراكعين بين الأرجل، نحاول أن نبث قوة داخلية روحية بيننا. إنها تجربة غير مسبوقة وفصل مرير من فصول عذاباتنا، راكعين وأيدينا على أذاننا، نلتقط كل حركة، متحفزين كلنا آذان، يشق فضاء الصمت ركلة لأحدنا، أو بصقه، وبدأنا بالدخول فرداً فرداً إلى غرفة قلم السجن، التي يوجد فيها مساعد أول يدوّن المعلومات المتعلقة بالاسم، والتهمة، والحكم ..إلخ ووقفنا في رتل ننتظر انتهاء الإجراءات البطيئة. فالزمن ليس حيادي يتطاول ممتدّاً كأنه لا نهائي في حفلة اضطهادنا، وممارسة أبشع الضغوط النفسية علينا، وبعد ساعات من الألم والإخضاع، طلبوا لأول مرة خلع ملابسنا، كل ملابسنا، حتى سراويلنا الداخلية، والقيام بحركتي أمان .. عراة .. أعيننا مغمّضة، تذكرتُ حينها عبارة وردت في رواية (زقاق المدق) لنجيب محفوظ «وجدنا أنفسنا عراة من كل لأيٍ أو عزم». حاولت إنجاز حفلة التعرّي بسرعة، إنها طريقة جديدة بالامتهان، في فصل محنتنا، التي جرّدونا فيها من كل ما هو مادي، وحتى الكشف

على «أعضائنا». ليس لدينا سوى الصبر وتحمّل الألم، فالعذاب والذل الذي أحسه الآن أمسى أشد من أي موقف واجهته في جو مملوء بالكره، لم يبقَ لدينا يا (دانتي) سوى الأمل لتحصين أنفسنا من الإصابة، رغم صعوبته، بانفصام الشخصية أو التقزّم العاطفي، لأن المجاعة حاضرة بكل صورها، المجاعات كلها، فالمجاعة النفسية خطرة كالمجاعة الجسدية، ومع أنها أبطأ فهي لا تقل عنها فتكاً.

من دون الإشباع العاطفي يموت الأطفال والكبار أيضاً، ساعات طويلة من التنكيل بنا، حيث الزمن لا يعدّ فيها بالدقائق والثواني، بل بأجزائها. عَصّبنا أعيننا وجَرَّرْنا أغراضنا جرّاً، لأن قوانا أُنهكت، نريد أن نصل أخيراً إلى مكان ما، أي مكان نرتاح فيه، ما زال الأمل بلقاء رفاقنا، خير زاد وعزاء لنا، تشدّنا عناصر البلدية، للسخرة من رقابنا وتعطينا إجازات، ارفع رجلك، ولفّ على اليمين، وتلملم أغراضنا ما تُصادف أمامها، وقفنا أخيراً أمام باب أسود ضيق، فُتح الباب ونادى صوت من «البلدية» .. «وشّك عَ الحيط يا حسه» ..! وأدخلونا إلى الباحة التي يفضي إليها الباب، ثم وزّعونا على «السواليل»، اثنان، اثنان، دفعوني داخل «السالول»، ثم أدخلوا نعمان ورائي، وأغلقوا الباب، وتنفسنا الصعداء، أخيراً على زنزانة مضيئة وفوق الأرض، ومع نعمان !! تعانقنا ...!!

10

السالول رقم (4)
«الشمس تغادر عرشها وتغرب في ذاتها»

بعد بضعة دقائق على دخولنا، انفتحت طاقة السالول، وقف عليها شاب أبيض البشرة، عيناه خضراوان، وشعره مجعّد قائلاً : أنتم السالول رقم (4)، كلما نادينا (4) تقولوا حاضر ووجهكم إلى الأرض، فنظرت إليه، التقت أعيننا لحظة، قال: سأسامحك هذه المرة، وهذه آخر مرة، وأغلق الطاقة ثم أكمل مشواره في إعطاء التعليمات نفسها إلى السواليل الأخرى.

والسالول هو عبارة عن مصطبة في نهايتها حنفية ماء، عاطلة، مشدودة بالخيطان، وتنقّط، وقربها قطعة صابونة وأسفنج، وضعنا الحرامات على المصطبة، جلسنا منهكين، نريد أن نرتاح وننام قليلاً بعد رحلة العذاب، عذاب الجسد والروح، الذي لم ينته بنا إلى رفاقنا .. آه .. ما أطول يوم 1998/6/24، مساءً «الشمس تغادر عرشها وتغرب عن ذاتها»، والهدوء تام لا تقطعه سوى زقزقة العصافير التي تستطيع المرور بصعوبة بين ضفائر أسلاك الباحة الشائكة. وفي الجهة المقابلة، هناك عنصر يسير على سطح السواليل المقابلة، معه بندقية وعلبة ماء، لا يأبه بنا ولا نعنيه بشيء، وشيئاً فشيئاً نشر الظلام ظلاله علينا وأطبق على جنباته سكون عميق. وغرقنا في عتمة صمتنا، صمتنا الذي لم يقطعه سوى قلق أعيننا ومخاوفنا التي زرعتها خطابات من التقينا بهم من نزلاء هذا المكان المجنون، والواقع

خارج خريطة الكون وتجهله الإنسانية، وإذ كانت تعرفه، فإنها تصمت عما يجري فيه، وتكون الجريمة مضاعفة ...!!

الاستقبال الصحراوي ... ولا أحد ... التشريفة ...

محت هذه المحنةكل ندوب العلاقة ووحدتنا، كأننا نحن الآن في آخر الدنيا ونحن آخر السجناء الذين وصلوا إلى هنا. انقضى يوم 1998/6/24، دون دولاب الاستقبال الشهير هناك، أو دولاب الضيافة الأول في سجن تدمر، وفي صباح 1998/6/25، انفتح الباب باكراً، وعاد صوت «وجهك عَ الحيط باحه». دقائق معدودات وبدأت حفلة الاستقبال «التشريفة» وعلا الصراخ ... واشتدّ ... التصقت بباب «السالول»وثقوبه، كان أبو يوسف يصرخ بصوته المبحوح «يا أمي لقد كسروا رجلي ...» اشتدّ الضرب وعلا الصراخ، وكلما علا الصراخ اشتدّ الضرب حتى همد الصوت واستسلم الجسد، وساد الضرب وانتصر ...! لم أكن خائفاً على نفسي بقدر خوفي على الرفيق جريس أبو يوسف، فالسنين التي يحملها فوق كتفيه، والرقة في قلبه، كنت أحس أن عليّ بذل أقصى ما أستطيع من أجل حمايته، قلتُ لنفسي، وربما كل واحد منا فكّرَ ذات الشيء، بأنّ هذا النوع من التعذيب لا يقصد منه الوصول إلى أية معلومات بقدر ما يهدف إلى إذلالنا، إذلال الإنسان، فالإنسان الذليل لا يعرف سوىالامتثال والاستجابة، وهذا ما يريدون، تحويلنا إلى قطيع مطيع ..! هنا آخر نقطة في «الوطن» وأي شيء يحصل فيه لا يحس به أحد.

غاب صوت جريس، همد الجسد واستمر الضرب، وعلا صراخ قلبي، والتفتُّ إلى نعمان وقلت له .. وقبل أن أُكمل العبارة .. كنت قد أصبحت مكانه في الدولاب ذاته، حيث تثبّت الرجلين في قارص حديدي مشدود إلى طرفيه (مرسه)، فتوضَع القدمان بين القارص والحبل، ثم يُلفّ الحبل على القارص من طرفيه ويُقبض على القدمين،

يمسك عنصران من البلدية أو الشرطة، لا فرق، ويبدأ آخران بالضرب، وكلما أشتد الضرب وعلا الصراخ، يحفر الحبل أخدوداً في عنق القدم وفي الرسغين، في ألم مضاعف، الألم والضرب، لا سبيل في مواجهتهما سوى الصراخ، الذي حاولت أن أكتمه، لكنني فقدت السيطرة على نفسي، وعدت طفلاً ينادي أمه، كما فعل جريس، لتنقذني منهم، ثم ناديت أبي .. فأمي .. فأبي ..و .. و .. لا أحد يسمع .. ولا أحد بإمكانه أن يفعل شيئاً، انتهى الدولاب، ودخلت إلى السالول، وبدأت أنطّ كي لا ينحبس الدم ويجمد، ثم أكملوا على البقية، سلامة ومحي الدين .. و .. و.. تشق أصواتهم صدر الفضاء، ولا أحد .. سوى الضرب وصدى الصراخ، امتلأت السماء بأصواتنا ونداء استغاثاتنا، ولا أحد ..!!!!

نظام السالول قائم على إخضاع النزيل وإذلاله، كي ينضم إلى القطيع المطيع، تبدأ عملية الإخضاع باكراً مع توزيع الفطور في الباحة الخامسة، حيث يخرج النزيل راكضاً محني الظهر، يحمل زبديات البلاستيك من أجل الشاي والحلاوة والزيتون والخبز، ثلاث خبزات يومياً، وفي المسافة الفاصلة بين مكان توزيع الطعام في وسط الباحة، وباب السالول، ينتشر العناصر، ويضربون كل من يطالون، لذلك نضطر للركض بأقصى سرعة ونتلوّى بأجسادنا، اتقاءً للضربات،فينسفح الشاي وتتدحرج حبات الزيتون على الأرض ويسقط قلبي بين رجلي، وكثيراً ما تكون الحصيلة بضع حبات وعدة رشفات من الشاي، وتتكرر المأساة في اليوم مرتين عند الفطور وعند الغداء، ونبقى متوترين حتى نستلم الغداء، ويغلق الشرطي الباب، فنهدأ ونستقر عندما يخرجون من الباحة، فنشعر بالاطمئنان والأمان حتى صباح اليوم التالي ...

نقصّ حكايات الماضي وقصصه، ونقرض الشعر، ونجترّ الذكريات، ساعات وساعات .. مكاني على المصطبة متر ونصف، سارت الأمور

هكذا، محمولة، تأقلمنا مع نخيلنا، وعزلتنا .. حتى جاء أحد الرقباء اللئام، إذ خرجت كالمعتاد صباحاً لأجلب الفطور، فنسيت الشاي، وربما لم أردها، وعدت شبه زاحف، أتلوّى بسرعة لم يستطع أي منهم أن يطال ظهري، وأغلقت باب السالول ورائي، رغم نداء الرقيب والعناصر: يا أربعة .. يا أربعة .. يا حمار ..! كان النداء داخلي أقوى، ربما كان القرار برفض الامتثال والاستجابة لأكون من القطيع المطيع ..! فجاء شرطي وفتح الباب، ثم جرّني من شعري وسلّمني للرقيب أول، الذي طلب مني أن أرفع رأسي، وأغمض عيني، تلك هي المرة الأولى التي يطلبون فيها مني رفع رأسي، وانهالت على وجهي الصفعات اللئيمة، صفعة بعد أخرى. دخلت السالول، وشعرت بالقهر الشديد وكان بيني وبين البكاء شعرة واحدة، وكادت الدمعة تنبجس قهراً، وساد الاختناق، اللحظة التي لا يشبهها غيرها، ثم التفتُ إلى نعمان الذي كان يعاني الشعور نفسه، وانكسر الصمت بيننا عندما قلتُ له: هذا من أجل الشاي، فكيف لو كان الأمر من أجل الفروج مثلاً .. وضحكنا .. وخرّت دمعة الجوكندا.

استمرّت إقامتنا في السالول عدة أسابيع، بدت وكأنها شهور طويلة ... وكأننا في نفق لا نهاية له ولا ضوء فيه !!

لم نكن نحلم سوى باندماجنا برفاقنا، بالتقاء نصفنا الآخر، ولمّ شملنا، وحلّ ذلك اليوم المأمول وانفتح باب السالول أخيراً، حزمنا أغراضنا، وبلحظات كنا في الباحة معصوبي الأعين فرحي القلوب ...جرّونا .. كل ما أذكره الآن هو الإيعازات التي كان يسبقني قلبي إلى تنفيذها: ارفع رجلك وَلَه .. فكان ينط قلبي إلى فمي، وكثيراً ما يأتي الإيعاز متأخراً، ونقع على الأرض وننهض، تذكّرت حينها الشاعر اليمني الضرير عبد الله البردوني، الذي كان مصرّاً على الركض مع أقرانه الأصحاء، في الطرق الضيقة، وينهض كلما وقع، مصرّاً على البدء من

جديد مثل المبصر وأكثر...!

نساق من عتبة إلى أخرى، حتى وقفنا أخيراً أمام مهجع، انبعث من داخله صوت عميق: «حاضر حضرة الرقيب أول» كأنه آت من كهف بعيد...!

حاضر حضرة الرقيب أول

دخلنا إلى المهجع وأدخلنا أغراضنا، نعمان وأبو يوسف وأبو علي سلامة، ومحي الدين شنانة وأنا. غرفة مفتوحة السقف، كان عمار واقفاً، احتضنته فشدّني إلى الغرفة الداخلية المظلمة، أو انه كهف، لم أشاهد أحداً للوهلة الأولى، ثم لاح لناظري أشباحُ مجموعةٍ من البشر، بدأتْ ملامحهم تظهر، عمر الحايك، عبد الله قبّارة، راتب شعبو، محمد خير، ارام ، وحكمت مرجانة (أبو فادي)، وجاء مازن أخيراً، بعد أن تم إغلاق المهجع، وتحقق حلمنا بلقاء رفاقنا، وأختلط الحزن بالفرح، الفرح من جانبنا لأننا خرجنا من السواليل والتقينا بهم، والحزن من الجهة الأخرى لأن مجيئنا كان علامة قاهرة لا يمكن إثبات عكسها، وإحباط لحلمهم الكبير بالعودة إلى سجن العاصمة.

بدأنا نتعارف على بعضنا البعض من جديد، كانت الملامح الخارجية هي التي تشدنا، سجلات الزمن،والفاقة والشيب والصلع والتجاعيد. والحزن الشفيف كالأنيس، كلنا قادر على البوح، ونضال الذكريات التي تستقر في شرايين الدم، فتنزف الجراح الخفية، ونقتلع النصال، بأيدينا، ونوقف نزف أرواحنا بالنظرات والكلمات. كل ما يحيط بنا وما يجري لنا، يمنحنا الإحساس بأن العالم قد نسينا، وماتت كرامة البشر. وتبدو الإنسانية هنا لفظة بائدة، انتحرت .. لأن الهمجية والوحشية سيدتا هذا المكان .. والجنون .. لا يكتمل الجنون .. وإن إمكانية الجنون الأقصى ما تزال ممكنة ...!

الليلي ... والتَعليمْ

«أطول ليل هو ليل الجائعين والخائفين»

بعد انتهاء مهلة الضيافة والتي أعفانا من خلالها الرفاق من مهمة «الحرس الليلي» جاء دوري الأول بين الجدد، وتم إعفاء أبو يوسف ونعمان لوضعهما الصحي. لبست الجاكيت والبوط، وبدأت السير على طرف المهجع بمحاذاة الحائط، وكان ذلك امتيازا لنا، حُرمَتْ منه المهاجع الأخرى المجاورة. فعلى «الحرس الليلي» أن يقضي فيها مدة حراسته واقفاً تحت الشرّاقة .. مرّت الدقائق الأولى للتجربة الجديدة بنجاح، لكنه لم يدم طويلاً جاء العسكري، وخَبّط برجله على شبك الشرّاقة السقفية، أسرعتُ صائحاً بصوت عالٍ: حاضر حضرة الرقيب أول، مع التحية القوية، فقال: لماذا صوتك عالٍ؟ انقلع .. حاضر حضرة الرقيب أول مع التحية ! تنفستُ الصعداء وعدت مزهواً بنجاح تجربتي الأولى، لكن الحرس العسكري، أراد أن يتسلى خلال نوبته، فعاد بعد أقل من ربع ساعة، وَخَبّط على شبك الشرّاقة، فأسرعتُ .. حاضر حضرة الرقيب أول مع التحية ..!

شوفي عندك؟

أجبت: الكل نايمين مطمئنين حضرة الرقيب أول.

فقال: منبطحاً ...! مرت لحظة أحسستُ خلالها وكأن تياراً كهربائياً قد برق في جسدي ... انبطحتُ، ثم أكمل إيعازاته: واقفاً، منبطحاً، واقفاً، منبطحاً ... أكثر من نصف ساعة، ثم أعطاني تمرين آخر هو (الرقصة الروسية) وتلاها بالتمرين التاسع، أصبح جسدي كتلة نار، وطلب مني أن أنفذ التمرين مئة مرة، وبدأت العد، 1، 2، 3، وصلت إلى عدد20، فقال لي: أعد التمرين من الأول، لأنك أخطأت في العدّ، واستمر التنفيذ والإعادة، حتى خارت قواي، فأسندت ركبتي ويدي على الأرض، وأخذت أرفع رأسي للأعلى والأسفل فقط (كالحردون)، وظل يتسلى حتى نهاية نوبته، ولما انتهى قال لي: علم نفسك ثلاثة أشهر، ذهب

العسكري، وأتى غيره، واستلم أبو طارق بعدي، ثم استلم بعده آرام، أحسستُ أن صدري قد انتفخ كبوري صوبيا، انقضت الساعتان، وانتهت نوبة أبو طارق وآرام ... وبعد أن أبترد الجسد وانتظم التنفس، تسلل القلق إلى روحي، كانت تلك الليلة في آب 1998، رغم أن تلك الفترة كانت فترة تراجع فيها التعذيب. وللحقيقة، فأننا نحن الدفعة الأخيرة لم نتعرض إلا لجزء ضئيل لا يُقارن بما تعرض له رفاقنا، الذين جاءوا في 1996/1/3، وقضوا هناك أعصب الأرقات وأقساها، لقد عانوا ما لا يطيقه البشر، مما لا تستطيع الكلمات والعبارات، مهما كانت دقيقة في التقاط تفاصيل الوجع والألم، أن تصفه. لأن الواقع في مأساويته يتجاوز المأساة، ويتجاوز كل قدرات التعبير اللغوية والفنية.

يتفنّن الشرطي بالتسلية منفلت من أية رقابة للتنفيس عن عقد شخصياتهم وأمراضهم، شخصيات مَقهورة ومَقموعة ومُضطَهَدة، تنقل كلها فتوضع في مكان تستطيع أن تُمارس اضطهاداً على الآخرين، يقلّدون مُضطهديهم وقامعيهم ويتفننون ويُبدعون في صيغ «الإذلال».

جاء أحد الشرطة مرّة، وطلب من «الحرس الليلي» أن ينقل الأحذية المركونة في أحد زوايا المهجع إلى زاوية أخرى، ثم طلب منه الانبطاح وأمره أن يعيدها إلى مكانها الأول بفمه .. صائحاً: « انقل شرفك بفمك...!».

هوى بقامته الطويلة، واضعاً يديه ثم ركبتيه على الأرض، في محاولة لقضم الوقت، علّ شيئاً ما يحصل، علّه يغير رأيه، لعلّ السماء تأتي بالمفاجآت، وتثأر لمسخ الكائنات ... و .. و ..!!

كان صوت الشرطي يعلو ويزمجر، مكرراً أوامره، حاول أن يرفعها مستخدماً قميصه، فأمره الشرطي أن يخلع قميصه، وأن ينقلها بفمه من زاوية إلى أخرى ...!!

كنا جميعاً نغلي تحت الأغطية، شهود وضحايا على مسرح امتهاننا وإذلالنا، كنا حينها قد أصبحنا جزءاً من القطيع المطيع الذي يؤمَر فينفذ .. فالذليل لا يعرف

إلا الامتثال والاستجابة، هذا ما يريدون، تحويلنا إلى قطيع مطيع.

آه منك يا (دستوفسكي ..) «إن الإنسان لنذل، حتى أنه يعتاد كل شيء ..بلى، إنه يعتاد كل شيء، الألم، الذل، الجوع، الكذب والخيانة، أو التعذيب إلى أبعد الحدود، ولكن في لحظة ما يقف فوق جراحه ويثأر لكرامته المهدورة بطريقة ما، وفي ذلك تكمن عظمة الحياة ... «.

تلك هي عظمتك عندما سجلت في روايتك (ذكريات من بيت الموتى) عندما نجوت من الإعدام، لأفكارك الثورية، في اللحظة الأخيرة واستبدل الإعدام بالنفي إلى مستعمرة العقاب الرهيب في أومسكال السيبيرية لمدة أربعة أعوام، التي دوّنت فيها مذكراتك .. وعندما قرأ أبن الإمبراطور الروسي روايتك تلك، أعلن غضبه على ما يجري، رأبلغ والده بضرورة وضع حدّ لهذا الامتهان لكرامة البشر. ومن يومها توقف العمل بقانون القنانة، وأوصى بوقف التعذيب في السجون تحت أي ذريعة.

آه منك يا (دانتي) .. لن نترك الأمل على أبواب جحيمنا، لأنه معيننا الوحيد في الإصرار على الحياة والبقاء والحلم في نفق معتم، أرادوه أبدياً لانهائياً، ومن يخرج منه، أن يكون ذليل لا يعرف إلا الامتثال.

كانت آخر فردة حذاء تسقط قرب رؤوسنا، وكان صديقنا يقول لنا: هانت، من الغد سوف نخفي أحذيتنا حتى لو اضطررنا إلى وضعها تحت الفراش تحت رؤوسنا ..!!

لماذا كل هذا؟ وهل هناك ما يبرره ..؟

إنه الهوس، الهوس بالسلطة تحديداً، لأن المهووس بها يتخلى عن الإنسانية من أجلها، فيتحوّل إلى عبد للسلطة وإلى خادم عندها، اعتقاداً منه أن التمسك بها لا يتم دون ذلك، والخطورة هي هذه التراتبية، تراتبية المهووسين بالسلطة، فكل مهووس يمارس سلطته المطلقة على الأدنى، والمهووس الأدنى هو الآخر يمارس هوسه السلطوي على الأدنى منه، وهكذا ندور جميعاً في عالم العبيد.

11

التنفّسْ ... إخماد التمرّد ...

أما التنفسْ في سجن تدمر فإنه يحمل دلالة متناقضة للمدلول اللغوي للكلمة، وعكسه تماماً. يأتي الأمر فجأة، ودون سابق إنذار: رئيس مهجع، جهّز عناصرك للتنفس،بيدونات الماء جاهزة، يخرجها اثنان منا، نرشّها بوضع اليد على فم البيدون، ونرشّ الماء على الأرض المحفورة والمتحجرة، ونخرج واحداً واحداً، ونقف رتلاً خماسيا،ثم جاثياً على البحص أو الحجارة واليدين على الأذنين، ويتعرّض النسق الأخير غالباً للتنكيل والضرب، وحرق شعر الأذن بالولاّعة، وتجري المداعبة بإطفاء السجائر. لذلك كان يتم حماية الكبار بالسن والمرضى. والزمن مرة أخرى، هناك عدو يقف في مكانه لا يتحرك، فالدقائق كالساعات تمرّ على أرواحنا، وتحرق أعصابنا، ونصير كلنا آذان بانتظار إيعاز: الكل واقفاً، والعودة إلى المهجع، ما أحلى المهجع وما أروعه. وبعد الدخول نتفقّد بعضنا، خسائرنا وإصاباتنا. ثم تبدأ سرد وقائع ما جرى، من تعرّض للضربْ، وما أسم الرقيب وعدد العساكر ...إلخ.

رغم أن التنفس هناك، هو فصل من فصول مأساتنا، فإنه يمثّل كسراً للروتين، ويضخّ أحداثاً جديدة تقطع رتابة حياتنا المملّ، وتشحذ أعصابنا، وكذلك يفعل التفتيش الذي يجري من حين لآخر، وعندما نسمع من بعيد صليل القارص الحديدي الذي يتم استخدامه في فحص زوايا المهاجع عبر الطرق بمحاذاة جدران المهجع، نُكوّم الأغراض في وسط المهجع تحت الشرّاقة تماماً، ونقف كما في التفقد اليومي خمسة خمسة، تخلق ضربات السياط على الحيطان جواً من الرعب منقطع النظير، وهي حَملات مفاجئة وغير دورية.

في إحدى جلسات التنفس السابقة، كان يتم إخراجنا إلى الباحة الخاصة بالمستوصف، ونجلس تحت أشعة الشمس اللاهبة، أراد أحد الحراس الضجرين أن يمازحنا مرة، وأنتقى اثنين منا، أبو الفانيلا الصفراء، وهو عمر الحايك، وأكبر المسنين المحامي العجوز مصطفى الحسين «أبو مالك»، أمر الحارس عمر بالانبطاح على الأرض، ثم طلب من أبو مالك أن يصعد على ظهر عمر، يتردد أبو مالك، وما هي إلا دقائق حتى جاءت فرقة مكافحة التمرد ..! مجموعة من العساكر يضربون السياط على الجدران في طريقهم إلينا، وعندما وصلوا، سأل المساعد أول قائد المجموعة: ما الأمر؟ فقال الحارس: إنه تمرد، رفض الأوامر العسكرية. وأقتضى قمع التمرد، دولاب لـ عمر الحايك، وأبو مالك .. أما البقية عشرة كرابيج على الساعدين فقط لا غير ..! طلبنا من عمر أن يغيرّ الفانيلا الصفراء، كي لا يعرفه الحراس، وفعلاً ارتدى عمر قميصاً آخر، ورغم ذلك، ونحن في التنفس اللاحق ورؤوسنا في الأرض، نادى الشرطي على الجالس في الصف الأخير، وبدأنا نرفع أيدينا واحداً بعد الآخر، فقال العسكري : لا ..لا .. أنت أبو الفانيلا الصفراء سابقاً ..! كدنا نضحك ونُسبب مشكلة كبيرة، فابتلعنا ضحكنا، رعبنا الذي يبدو أن لا قوة لأي شيء على الإطلاق في تغيير هذا الرعب الذي نعيشه يومياً.

الصحّي

في المهجع شخصان يُعترَف عليهما، ويتم الاتصال بين المهجع والإدارة عبرهما، هما: رئيس المهجع والصحّي. فالصحّي هو المسؤول عن الوضع الصحّي للنزلاء، ويشرف على صيدلية يتم توزيعها على المهاجع، ويُصرف الدواء بإشرافه ومسؤوليته، وفي أحد الأيام، جاء الدخان بعد انقطاع، وتم تجاوز التقنين في ذلك اليوم، وأخذ الشباب يدخنون، ودخّن أبو مالك يومها عدة سجائر متتالية أشعلها الواحدة تلوى الأخرى، وقبل أن يكمل سيجارته الأخيرة، سقط مغشياً عليه، حاول الصحّي آنذاك، الدكتور تيسير حسون علاجه فلم يستجبْ، فتم دق الباب، الوسيلة الوحيدة للتواصل مع (اليومية)، فجاء الحارس على السطح وسألنا ما الأمر؟ أجاب د.تيسير: وضع صحّي حرج، اشتباه جلطة ! وبدوره قام الحارس، بتبليغ الحارس المجاور (لليومية)، دقائق قليلة، فُتح باب المهجع، ونادى الرقيب: هاتوا المريض، نقلناه على عازلٍ ووضعناه على عتبة المهجع، كان الطبيب يقوم بعمله الذي يمكن أن يمتّ لأي شيء إلا للطب البشري، وشرع يفحصه برجله، وحاول أن يُقلبه، فتحرك أبو مالك، فقال الطبيب: هاهو يتحرك، فكيف تقول جلطة؟ فقال الرقيب للصحّي تيسير: عَلِّمْ نفسك غداً، ثم غيرّ رأيه قائلاً: لماذا غداً، تعالى الآن، وقف د.تيسير بقامته المتوسطة جانباً يحاول أن يتقي الصفعات، فطلب منه الرقيب أن يرفع رأسه ويغمض عينيه، فانهال عليه بالصفعات، وركله برجله ...!

مسار الأمر اليومي

مقطوعين عن العالم الخارجي ومنسيين في غياهب مهجورة، تزورها الشمس من فتحات في السقف، وحتى الإضراب عن الحياة فإنه لا يؤدي لنهايتها، بل لتكرار القسوة، وإدماننا على تحمّلها، المعَذبين «لا نموت ولا نحيا». شهود على مسخ الكائنات في شريطة متوالية لشاهد على مسرح

الرعب، فمن سجناء يجرون أجسادهم المنهكة، ويحملون بعضهم بعضاً على العوازل، ومهاجع المسلولين الذين نشاركهم نفس الباحة، فمن يُعَقّل هذا الجنون؟، وكأن لا قوة لأي شيء على الإطلاق في تغيير هذا العبء الذي نعيشه يومياً.

نفتتح يومنا بالرياضة الصباحية، من السادسة صباحاً وحتى السابعة والربع، ثم الفطور والخبز البايت، والبيض المحفوظ في برادات شعبية، مصنوعة من علب اللبن التي ألبسناها قماشاً، ووضعنا قليلاً من الماء في الغطاء، وكذلك الأمر مع اللبنة والشنكليش المطحون الناعم، والمجبول بالملح، في أيام العز والنعيم.

وشهدنا وفرة بالمواد إذا ما قورنت بالفترة الأولى، عندما كان يتم توزيع البيضة الواحدة على شخصين، وتوزيع الحلاوة بملعقة البلاستيك الصغيرة، مرت أيام عديدة كان حلمنا فيها أن نشبع حلاوة، وعندما جاء الضابط مرة، طلبنا منه أن يدعمنا بالحلاوة ..! وفي يوم توزيع الزيتون، كنا نقوم بوضعه في صحون البلاستيك ونفصصهُ ثم نضعه في بيدون مع بعض الثوم ونخلطه بالزيت والفلفل الأحمر ..!

وبعد الفطور وجلي الصحون وشرب الشاي البارد، نلبس ثيابنا ونبدأ مشوار المشي اليومي من الثامنة صباحاً حتى وقت توزيع الغذاء، ثم التفقد اليومي بين الساعة الواحدة بعض الظهر والثانية، حيث نقف في المهجع خمسة خمسة ووجوهنا في الأرض، يدخل الرقيب ويَعُدّنا ثم يخرج، فيشد رئيس المهجع مازن، الباب وراءه صائحاً: المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب أول. والغذاء يوم برغل وآخر رز. يأتي الرز مجبولاً عادة وساخناً فنضع عليه بعض الحليب المجفف والسكر ونضيف بعض الماء، ونحركه جيداً فيصبح رز بالحليب. أما المرقة التي توّزع يومياً تقريباً أو اللبن أحياناً، ففي موسم الجزر في الشتاء يكون التوزيع مرقة جزر حتى

انتهاء الموسم، وكذلك الأمر في الصيف بموسم الباذنجان، فتستمر مرقة الباذنجان طيلة الموسم، وكنا نخلق جواً من المرح ونطلق النكات بيننا : من يعرف ما هو الغذاء اليوم؟ وماذا سيكون بعد غد، وبعد بعد غد، وبعد شهر من غد؟ وهكذا، وإذا حصل أن تم توزيع مادة جديدة فنستطيع معرفتها إما من القشور أو من الرائحة كما يحصل أحياناً مع يخنة الزهرة (القرنبيط) ...

يتم توزيع الجريدة علينا يومياً، مع الفطور عادةً، ونوزّعها بالدور الأول على ثلاثة يقرؤوها لمدة ربع ساعة، ثم يتم تدويرها حتى يقرأها الجميع من الآلف إلى الياء، حتى الإعلانات، والمناقصات، ونعي الموتى، وبطاقات الشكر ...الخ ، ونسلمها في اليوم التالي ونستلم بديلاً عنها. وكان محمد خير خلف (أبو طارق) يمزح قائلاً : عندما أخرج سأصنع تمثالاً لجريدة البعث.

وفي الخامسة مساءً نضع العشاء، ففي موسم الباذنجان نعمل على تصفيته وغسيله ثم ندقه بالثوم واللبن والطحينة، ونضيف إليه زيت الزيتون، ويصبح ألذ «متبّل» مع مكدوس الزيتون المحلّي، من صنعنا، والشاي البارد. وبعد العشاء نجلي الصحون ونشطف المهجع، ويدخن المدخنون سجائرهم الأخيرة، ونجهز الفرشات ونمدّها تحضيراً للنوم، ثم الجلوس في الفراش عشر دقائق قبل الساعة السادسة موعد النوم، نضع الطماشات على جَبَهاتنا، ونتحدث بأصواتٍ هامسة، لحظات صمت وحزنٍ عميقان وكأن حبالٍ أو أيدٍ قاسية تطبق على رقابنا، يقطعها إيعاز مازن: «تصبحون على خير، وعلى وطن يا شباب».

ويبدأ مسلسل النوم، أثني عشرة ساعة يومياً، وتبدأ الهجرة أو المغادرة إلى الذات بقصد حفظ البقاء وصيانة الوجود من التبدد والضياع. كنا نقاسي عذاباتنا بصمت، واستحالت في ذاكرتنا كل حياتنا الماضية، طفولتنا وأيام

مراهقتنا، بكل ما فيها من شكوك وأحزان ومحبات وكره، كنا دون أن نحس نستند إلى ذكرياتنا في طلب المساعدة والاستقرار. وتشتعل غرائز الجسد، نقضي الليل في استعادة ما اختزنته الذاكرة من صور وأوضاع للأجساد التي مررنا بها .. و» نفرغ في النهاية على أجسامنا العذاب والألم «. خدر من الدفء تجلبه الذكريات وطعم القبل، وكم من رغبة كُبتتْ تعود الآن جامحةً، تستغل التصحر وافتقاد الأنثى، الذي لا يوازيه افتقاد أو جَدبْ، يُصَحّر الروح ويُعذب الجسد، ويغدو كل شيء خارج الفلاة «الجهنم» جميلاً. وكثيراً ما يفسد علينا تبديل الحرّاس تلك الحالات الجميلة، وقد يخطر على بال الحارس أن يتسلى، رغم إعفاءنا في الآونة الأخيرة، من «الحرس الليلي» بعد أن أصبح عددنا أقل من عشرة. يخبّط الحرس العسكري على شبك الشرّاقة السقفية، مرة بعد أخرى، وعندما لا يرد عليه أحد، يعلو تَخبيطه، ولا يتوقف حتى ينهض أحدنا، وغالباً ما يكون مازن، رئيس المهجع، حاضر حضرة الرقيب أول مع التحية برجله الحافية تحت الشراقة.

- وين «الليلي» ؟

- ليس لدينا ليلي ..

- انقلع ..!

- حاضر حضرة الرقيب أول، تحية باردة ..!

12

الزيارة .. والباحة الخامسة

كانت الزيارة بالنسبة لنا كالعيد للأطفال، تحمل لنا ما لذّ وطاب من الأكل والطعام، المواد الغذائية، اللباس، الدواء، والحلويات. نحن المنسيون هناك، وأن أهم شيء كانت تقدمه لنا الزيارة هو الإحساس الذي تخلفه، بأن هناك من يسأل عنا ويهتم بنا، ويتجشّم عناء السفر الطويل والمرهق في الحرّ والقرّ، عداك عن التكاليف المادية الثقيلة، والمصاريف بشتّى أنواعها، والعذابات بكل ألوانها.

أم مازن الإنسانة التي ساعدتنا على جعل مأساتنا أخف، ودون ريب، جعلتها محتملة أكثر، وتحمّلت ما تحمّلت، مثلنا، وربما أكثر، ويأتي في رأس ما قدّمته لنا هو الحماية والدعم المعنويان، اللذان وفرا لنا مظلة أمام الإدارة وحاجزاً في وجه استباحتنا ..! كانت زيارتها الأولى ونحن هناك في شهر أيلول عام 1998،محملة بالأطايب من اللحوم والحلوى، وكانت تسعى من أجل نقلنا من المهجع 2/2 إلى الباحة الخامسة، وأصرّت مع غادة، على مواصلة المحاولات واستمرار الجهود من أجل ذلك حتى تحقق..!

الباحة الخامسة، باحة المتناقضات، أقسى الباحات وأفضلها، باحة السواليل التي استقبلونا فيها، وباحة الجماعيات، سماءها مقفورة بالأسلاك الشائكة والتي يصعب على العصافير المرور عبرها، كانت الجماعية الخامسة مهجورة، اتخذها الحَمام سكناً له، نُقل نزلاء الجماعية السادسة إلى الجماعية الرابعة، فنزلنا فيها، كان يوم انتقالنا إليها، يوماً فارقاً في سجننا بل في حياتنا، حيث نُقلنا من تحت الأرض إلى فوقها، من الرؤوس المطأطئة والشوارب الحليقة إلى رفع الرؤوس وإطلاق الشوارب واللحى، والجماعية السادسة شقة مؤلفة من ثلاث غرف في صدر الباحة الخامسة، لها مدخل واحد، وموزع ضيق، ويوجد فيها مطبخ مزورب أسود الجدران، مظلم تفوح منه رائحة الكاز، وفي سقفه فتحة صغيرة للإنارة والتنفس، وخروج الأبخرة، اشترينا البابور وعدة الطبخ. أشعلنا بابور الكاز الضخم، الذي أخذ يهدر في المطبخ ونحن متحلقون حوله كأطفال ينتظرون أن تنضج الشاي، لنشرب شاياً ساخناً بعد سنين، صَبَبْنا الشاي في كاسات الشاي البلورية، واحترقت أيدينا وشفاهنا وبدأنا كالصغار ننفخها كي تبرد ..! واستطعنا في سجن تدمر، تحقيق ما عجزنا عن تحقيقه في سجن العاصمة، تخصيص غرفة لغير المدخنين لأول مرة في تاريخ سجننا، رغم محاولات فاشلة في سجن عدرا، وانقسمنا إلى مجموعتين: الغير مدخنين: وهم د. راتب شعبو، وآرام كربيت، وجريس التلي، ومحمد خير وأنا، وظلّ حكمت مرجانة (أبو فادي) صلة الوصل بيننا، وأخذ ينام عند المدخنين، وهم: مازن شمسين، نعمان عبدو، عبد الله قبارة (أبو نجم)، عمر الحايك، سلامة كيلة، محي الدين شنانة، وعمار رزق.

في الغرفة مصطبة على طولها، نضع عليها الفرشات، نلمّها في النهار ونتمشى عليها، ونأكل عليها، تغيرّ حالنا، واشترينا كل ما يلزمنا من مواد غذائية، وبدأنا نطبخ مما يأتينا من خضار نيئة وما نشتريه في الفاتورة

الأسبوعية، وشرعنا في توزيع العمل داخل الغرفة السادسة، واستلم الطبخ ثلاثة: عبد الله قبارة، عمر الحايك، ومازن شمسين، وأخذوا يتبارون في إعداد الطعام وطهيه، وطبخنا ما لا يخطر على البال من أكلات حلبية وشامية وسواحلية .. إلخ، حتى الكبيبات،واللقاسات،والحبوبية،و البيرق، وظهرت المنافسات بين مدارس الطبخ التي كانت في خدمتنا، تستغرق الطبخة ساعات وساعات، كنت مكلّفاً بجلب بيدونات الماء العذب يومياً، وتفريغ الفضلات ونقلها إلى باب الباحة، وأصبح التنفس يومياً، فبعد توزيع الفطور نتمشى مرفوعي الرأس بين الرقباء وعناصر الشرطة، ونسلّم على نزلاء الغرفة الخامسة، جيراننا، اللذين اغتاظوا منا لأننا أخذنا غرفتهم ...

أريد إجازة

كان أحد نزلاء الغرفة الخامسة، مهندس وقد مضى على توقيفه عقود بتهمة العمالة لأحد أجهزة الاستخبارات الغربية، ونُسي هناك من ستينات القرن الماضي، وكلما فتح باب الباحة صباحاً لتوزيع الطعام، يخرج من غرفته ويندفع مسرعاً نحو باب الباحة المغلق، وعندما يعترض طريقه الرقيب يقول له: « أريد إجازة ..» يقضي معظم وقته صامتاً يأكل ويشرب، ويعمل في تصميم أشكال الخرز، كما تمر عليه أيام عديدة دون أن ينبس ببنت شفة، ضحك مرة خلال وجودنا هناك عندما رفعت له يدي ..!! وأَخَذَتْ تلك الضحكة نقاشاً طويلً، واجهتنا مشكلة خلال وجودنا هناك إذ كنا نتعرض لهجوم يومي من الفأر القارض، الذي لا يعرف الراحة، اشترينا اللاصق وأتبعنا معه كل الأساليب، ومع ذلك يظلّ يداهمنا، ونصطاد منه الكثير يومياً، ومع ذلك لم نشعر أنه قد تقلّص عدده.

لكن الأيام الجميلة بطبعها قصيرة، حتى هناك، لم تدم فرحتنا

طويلاً، وعلى أثر مجادلة حادة جرت بين مدير السجن وكاترين ابنة الرفيق جريس، التي تريد أن تقتحم كل الأسوار وتحطم كل الأبواب وأن تتسلق كل الجدران، من أجل اللقاء بوالدها، وعندما أحسّتْ كاترين أنها قد تعود دون أن تتمكن من رؤية والدها، وتسليمه الأغراض التي جلبوها معهم، رَمَتْ بضع كلمات، فأحدثت دوياً هائلاً في نفس مدير السجن، وانفجر عندما قالت له: « لَكَانْ يا عمي .. لناس وناس .. الزيارة والأغراض». وانتهت الزيارة بسرعة، ووقعت الكارثة على رؤوسنا. جاء مساعد انضباط السجن وقال صارماً: « ضبّوا أغراضكم .. إلى مهجعكم القديم 2/2 «. كان الخبر صاعقاً، لم نصدقه في البداية كالعادة مع الأخبار السيئة .. ثوان ثقيلة .. تبادلنا النظرات، كما قال راتب شعبو: « أشعر أنني على حافة الانهيار في لحظة ثم أنظر حولي فأجد رفاقي الذين أستمد منهم العزيمة وسرعان ما يتلاشى ذلك الشعور». بدأ مازن، رجل المهمات الصعبة، يستجلي الأمر، ويفاوض الرقيب أول أحمد، كان القرار حازماً ونهائياً، دقائق صمت عصيبة، ما أصعبها، حزمنا الفرش والثياب وكل الأغراض البلاستيكية إلى مهجعنا القديم معصوبي الأعين ومطأطئي الرؤوس ومكسوري الخاطر، كأننا نساق إلى حتفنا، كانت الأوامر واضحة، أن يزجّ كل من جريس وعبد الله قبارة في السالول. شعرت حينها أنه يجب أن نحمي رفاقنا، خصوصاً أنهما الأكبر في السن بيننا، عاد مازن من المفاوضات مع مساعد انضباط السجن، وخرج الدخان الأبيض بفضل جهوده ومبادرته وجرأته، عندما أصرّ على أنه هو المسؤول عن الكلام الذي قالته كاترين، وليس أبو يوسف، أو عبد الله قبارة. نمنا تلك الليلة بعد أن نفضنا الغبار وشطفنا المهجع، ومن الإرهاق، دون تعليق، مذهولين، مصعوقين ..

زيارة في 1998/11/20

في صباح 1998/11/20، أي اليوم التالي لعودتنا إلى مهجعنا، فُتح باب المهجع، فأسرع مازن نحو الباب صائحاً: حاضر حضرة الرقيب أول، المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب أول، أخذ الرقيب، مازن معه بعد أن وضع « طماشته « وأغلق الباب ورائه. وقف آرام معاون رئيس المهجع صائحاً: المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب أول، غاب مازن وأصبحنا نهباً للتكهنات، والاحتمالات، لأننا لم نكن نعرف أنه قد ذهب للزيارة، عاد مازن، محمَّلاً بالأغراض التي وضعوها أمام المهجع كالعادة، أنها زيارة أم مازن، وغادة .. كانت أساريره منفرجة، فانفرجنا .. وقبل أن ننتهي من تصنيف الأغراض وتوضيبها التي يبرع بها عمر دائماً، جاء الرقيب أول قائلاً : « ضبّوا أغراضكم «. كم أشعر الآن بروعة أم مازن، وأفتقدها وأتوق شوقاً للقائها لأقدم لها وردة، أو باقة ورد، أقول لها شكراً، وأنا هنا، أستعيد بعض ما فَعَلَتْهُ لأجلنا، وما قالته عندما عَلِمَتْ بأننا عُدنا إلى حيث كنا.. »إما أن تعيدهم إلى الباحة الخامسة، أو إنني سأنتحر في مكتبك«.
حزمنا ما أنفكّ من أغراضنا، ننط من الفرح والنشوة بالعودة، فرح طفولي لا شيء يوازيه، وانقشعت غيمة الحزن والغم .. وأرتاح أبو يوسف لأنه تحرّر من عقدة ذنب خفية، كانت مختبئة في بحة صوته ونظراته، تلك من الأيام التي لا تنسى في مقلبيها، ذكريات ما زالت طازجة ونابضة في بالي أستعيدها الآن، وأنا في قفص آخر، الأيام الجميلة بطبعها لا تدوم حتى في السجن، بعد مدة على عودتنا إلى الغرفة السادسة في الباحة الخامسة، وعودتنا إلى سابق عهدنا من طبخ وسهر ورفع رأس، وتعلم الفرنسية، ظلّ هناك خوف دفين في أعماقنا، وحصل ما كنا نخشاه ...!

تكهرب جو السجن فجأة، وطالت الفضيحة مدير السجن

الذي أُوقف مع مساعد الانضباط وسائقه، وتعددت الروايات حول الفضيحة وأسبابها والتي أودت بهم إلى السجن، وسيق رئيس السجن إلى السجن وحُكم عليه مع آخرين، البعض يقول أنهم تورّطوا في إطلاق سراح أحد السجناء وقبضوا مقابل ذلك مبلغاً محرزاً، ويقول آخرون أنهم تورّطوا في تجارة الآثار، ومهما يكن الأمر، وقعت تلك المصيبة على رؤوسنا، وجاء مدير سجن آخر. كان أول أمر إداري أصدره العقيد الجديد هو أن يعود وضع السجن إلى ما كان عليه في زمن مدير السجن السابق للمدير المسجون. وهكذا تم إعادتنا إلى حيث كنا إلى المهجع 2/2. و لم تتركنا أم مازن، بل لاحقتنا وبذلت كل جهدها لاستمرار المعاملة الحسنة وإدخال المواد الغذائية .. والأهم من ذلك كله توفير الحماية المعنوية، مظلة آمان روحية.

فرض الوضع الجديد نفسه علينا، بمزيد من الصمت والصبر والانتظار، وشيئاً فشيئاً دبّت الحياة فينا، وعدنا إلى سابق عهدنا من رياضة ونوم، وأحلام .. أمام الزمن الطويل، وفي ظل الحرمان من حلم القراءة والكتاب، فالقراءة هي نافذة على الحرية والفرح، وتذكرنا بشوق وحرقة ما قاله رسول حمزاتوف بحق الكتاب، ووصفه الذي فاق الجميع، إن الكتاب/يدفع الجيوش نحو النصر/ ودون حروب يفتح المدن/إن الحمير نفسها لو حاولت قراءة الكتب/ لما استطاع أحد بأن يقول عنها هكذا ببساطة حميراً.

بعد التفقد اليومي، كنا نعقد جلسة، يكون لها محوراً محدداً، أو خاصاً يحدده رئيس الجلسة. وبما أن النقاش الفكري والإيديولوجي يحتاج إلى مكان آخر رحب، وصدور أوسع، لأن الصوت مصيبة هناك، و لم نتخلص بعد من تلك السلبية التي تصيبنا جميعاً بهذا القدر أو ذاك، مهما ادّعينا غير ذلك، ولقد تدخّل مازن أكثر من مرة من أجل تهدئة الأصوات، خصوصاً في النقاش الذي جرى بين سلامة

كيلة وراتب شعبو. كانت المحاور الخاصة، الدافئة هي الأجمل، كان المحور الأول الحديث عن صديق أو صديقة، والأفضل صديقة، ثم محور آخر عن نقاط القوة والضعف في شخصياتنا، أو كتاب قرأته، أو قصة مؤثرة .. إلخ.

أتذكر أنني رويتُ مرة قصة سامبو أو كامبو، عندما اعتقلته الشرطة الفيليبينية في عام 1976. ظلّ لمدة أسبوع كامل عارياً، معصوب العينين، متعرّضاً للضرب الشديد، وقد استعمل رجال الشرطة ولعات السجاير لإحراق حلمتيه وأعضائه التناسلية، كما ربطوا سلكاً كهربائياً بإبهامه وعَذبوه بالصدمات الكهربائية، ثم ربطوه ثلاثة أشهر إلى سرير حديدي وهو مقيَّد بالسلاسل. أما حراسه فقد شدّوا حبلاً منيعاً بقدمه ومرّروا الحبل من تحت الباب وعلقوا بطرفه علب طعام فارغة، هكذا كانوا يعرفون أدق حركة منه، من أن يتحرك قليلاً أو يذهب إلى الحمام مثلاً حتى تقرع علب الصفيح عندهم.

لم تكن القصة جديدة على معظم الرفاق هناك، في تلك الرقعة المجنونة، لكنها شهامة من بشر ناضلوا مثلنا في أوقات صعبة، مع نهاية كل قصة كنا نصغي إلى أصوات الأطفال الذين يلعبون عند غروب الشمس قرب السور، وصوت المؤذن، وتشابك أصوات المؤذنين، نصغي إليهم بحزن، كل منا يعود إلى طفولته ...!

وقصّ علينا نعمان حكاية بلميرا وملكتها، كنا نصغي إلى صراخها، عند غروب الشمس، وصرخة الحرية في الشرق باسم بالميرا، حين قالت: «لا» لأعظم قوة في الدنيا آنذاك، روما. وتحدّت أورليانوس رغم سقوط حُمصُ، رفضت الاستسلام، وحوصرت، وتمكن أورليانوس من شراء الكثير من زعماء القبائل، وربما جميعها، وقطع عليها طُرقَ المؤن، قرّرت زنوبيا الخروج سراً من القصر والذهاب للاستنجاد بالملك

الفارسي هرمز، لكن قائد جيشها زبداي لم يوافقها، وحين أصرّت على الذهاب وخرجت، ذهبَ إلى الانتحار. وفي طريقها شرقي الفرات، تفاجأ زنوبيا بـ أورليانوس على حصانه يحاصره بعسكره. فَهِمَتْ أنها وقعت ضحية خيانة، لكنها لم تضعف، بل واجهته وقالت: « لا « ثم وهبت دمها للحرية، وسارت مغلولة وراء موكب آسرها أورليانوس إلى روما. زنوبيا التي ألهمت موسيقيّ العرب وشعرائه بأجمل الألحان والكلمات تمنحنا قوة الصبر والاحتمال.

وتحدّث مازن عن حكاية السجن الذي لا يقهر. إنه سجن الكاتزار التي أكتشفها الأسباني خوان دي أيالا عام 1775، استخدمها الجيش الأمريكي لايواء السجناء، وفي عام 1861 استقبلت الجزيرة أسرى الحرب الأهلية، ورفعت الحرب الأمريكية الأسبانية تعداد السجن من 26 إلى 450 نزيلاً، كان هناك حارس واحد لكل ثلاثة نزلاء. أما الزنزانة التي تُعرَف بـ الأورينتال فلا تضم إلا حفرة في الأرض مخصصة لقضاء حاجة النزيل، وعادة ما يكون النزيل عارياً. تم إغلاق سجن جزيرة الكاتزار في آذار عام 1963، أي في تاريخ إعلان حالة الطوارئ في سوريا. حاولت مجموعة من هنود الحمر في عام 1969 الاستيلاء على الجزيرة، من منطلق أن الجزيرة تاريخياً كانت للهنود الحمر، ليتم أخلاؤها بالكامل في عام 1971. واليوم تحول السجن والجزيرة إلى منتزه ومقصد سياحي يؤمه المئات من السياح يومياً للتجوال في مرافق السجن، فهل ينضم سجننا في يوم ما إلى أثار مملكتنا ...؟

وفي مسابقة أفضل قصة، فازت فيها قصتي «جسدها معي وقلبها لشخص آخر». كنت طالباً في الجامعة، وأحسست مرة بأنني كتلة شبق متحركة، يطير الشبق من عيني، لم تكن صديقتي في وضع يسمح لها بمشاطرتي ذلك اللهيب، بل كانت كالثلج باردة وكئيبة، كنا نقيضين،

كان كل همّي آنذاك، أن أشبع شهوتي، وكانت تبتعد وتنظر مشفقة، تطلب مني الابتعاد، أستسلم جسدها أخيراً، وأحسستُ بأنني بجوار جثة، شعرت بالاشمئزاز والقرف مما فعلته، وما يزال يرافقني الندم لاقترافه طيلة حياتي. وأستحضر الآن جسدها البعيد وقلبها الدافئ الجميل الذي يرفّ خافقاً في فضاء زنزانتي، لم أشعر أنه كان معي منذ تلك الحادثة ...!

وفاز راتب شعبو بقصة «أطول بكاء» حيث روى لنا راتب شعبو قصته قائلاً :

عندما كنت في الابتدائية، جاء لزيارتنا صديق أخي، من قرية مجاورة لقريتنا، وعندما همّ بالعودة إلى قريته طلبت منه أن يأخذني معه، لم يوافق أخي في البداية، فبدأت أبكي كي يوافق، فسمح لي أخيراً أن أذهب معه، ولما وصلنا إلى قريته، وجدت كل المحيطين بي هناك غرباء، توَسّلت له أن يعيدني إلى أهلي، كان الوقت متأخراً، ولا مجال لتلبية طلبي، فشرعت أبكي، فلم تجد كل إغراءاتهم بتقديم ما لديهم من مأكولات ونقود بأن يوقف بكائي، نمت باكياً وصحوت باكياً، وعندما أوصلني صديق أخي إلى بيتنا في القرية، قفزتُ إلى حضن أمي باكياً ..!

وفي الأمثال، فاز عمار رزق بجائزة حفظ أكبر عدد من الأمثال، وفاز بجائزة أحلى مثل: « لا يستطيع أحد ركوب ظَهرِكَ إلا إذا كنت منحنياً». وتبادلنا النظرات.

وفاز محي الدين شنانة، بجائزة «الاقتراح الجهنمي»، عندما انتهت مدة حكمه قدّم اقتراحه الجهنمي، الإضراب عن الطعام، وطرح الأمر معي فقلت له: لماذا؟ إذا كان الإضراب للاحتجاج لإسماع صوتنا، فإن من يسمع هذا الصوت سيسمعه بعد موتنا بعدة شهور!!

وتحدّث آرام (أبوكارو)، في جلسة خاصة عن الألم الذي عاناه الأرمن، وكأن الألم لا يتم إلا بمزيد من الألم. وكانت جلسة مخصصة للحديث عن المثقفين الأرمن الذين ماتوا أو قُتلوا، الذين اقتيدوا إلى الصحراء وقُتلوا في مذابح 1915، منهم الشاعر سمانطو، والشاعر نبيل فاروجان (1884- 1915) الذي أخذ معه ديوان «أغنية الخبز» ليعمل على استكماله. ومن استطاع منهم أن يهرب من الموت في مذبحة عام 1915 الكبرى، إما فقد توازنه العقلي أو مات على طريق المنفى قرب مدينة ديار بكر، كما حصل للشاعر باندرافيران تشاركيان (1875-1921) عندما قال : «ها هي الآلام تتثاءب بعد أن استيقظت».

وطال قسم ممن بقي، حركة التطهير الستاليني عام 1937، وأدت إلى مقتل العديد من المثقفين والشعراء الأرمن كما حصل للشاعر يغيشيتشارتنس (1897 - 1973) الذي قال :

كان الموت للأسف، وحده ما يوحدنا / معاً في عدالته.

ونضج الحزن واستوى في حكاية الموسيقار الأرمني الذي جنّ إثر الصدمة النفسية التي واجهها بعد مذبحة سنة 1915، وكتب عنه الشاعر الأرمني باروير سيفاج (1924 - 1971)، في قصيدته الطويلة:

أبراج أجراس لا يمكن إسكاتها

نحن لا نكاد نعرف شيئاً /عن طريق ضحك الإنسان /

كيف يضحك؟ / ولماذا الإنسان /

وحده يعرف الضحك؟ /

قولوا لنا بطريقة وديّة / كم من السنين يلزم /

كي يولد طفل من أطفال أندرسون /

ليخبر الملوك أنهم عراة /

وأرجوا أن تخبرونا /

هل سيحاول الملوك بعد علمهم أن يستروا عوراتهم /

أم يظلوا سائرين في غيّهم / ويقهروا المعترضين ..

وضحكنا كثيراً عندما روى لنا أبو يوسف، قصته المحظية الأثينية «ليون» حين قطعت لسانها لتمنع نفسها عن إفشاء أسرار المؤامرة التي جرت بين (هيرموريس) و(أرستوجيتوس)، لأنها لم تستطع السيطرة على ما تبوح به، كان يشير إلى أن السجن في سجن تدمر مضاعف للثرثار..!

وفي جلسة مخصصة لحديث عن السجن في الأدب والرواية تحديداً ما كتب منها في العربية والمترجمة، والسجون وأسماءها، مثل أبو غريب، وأبو زعبل، وسجن الواحات، وسجن العفير .. إلخ، والسجون الوطنية وسجون الاحتلال في فلسطين ولبنان من سجن الخيام حتى النقب، ونعلم أن قرّاء أدب السجون يزدادون شغفاً، وذلك لأن تجربة الحرية بالملموس هي أن ترى سواك، أو تقرأ عن سواك وقد استلبت حريته في سجن أو زنزانة، بينما أنت تدخن وتقرأ وتمدّ ساقيك حرّاً وبلا ندوب من الأذى الناتج عن التعذيب الجسدي والمعنوي الأبدي ..!

كم من الناس قد شعروا بالغثيان عندما أكل السجين صرصوراً في رواية الفراشة (هنري شابير) وعرضت فيلماً، وكم أحس الناس بلسعة السياط، عندما قرؤوا رواية شرق المتوسط للمبدع (عبد الرحمن منيف)، وفي رواية (القوقعة) التي لا يمكن قراءتها «بأمان في المقعد المريح للقراءة» لأن الأحداث التي تدور في سجن ما شرقي المتوسط لا يمكن تشبيهها بأي شيء، لا يمكن تخيّل حدوثها، مهما كانت الأسباب، لا يمكن تبريرها، نحن لا نكتب من الخيال، بل من الألم اليومي، من قصص الرعب، لا

نملك سوى أقلامنا وذاكرة مليئة بالألم، أهدافنا نبيلة، يهمّنا الوصول إليها وبنفس المقدار يهمّنا كيف نصل إليها، ما زال احتجاجنا على الاضطهاد مستمراً، نتحمل القمع والسجن برباطة جأش، بقوة الإرادة والتصميم على نيل حقوقنا ..

كان يؤلمنا، وما زال أنماط المثقفين الذين يتحدّثون عن حقوق الإنسان، ويؤيدون في الوقت نفسه، علناً أو ضمناً، السلطات القامعة. وآخرون يتحدّثون عن هدر حقوق الإنسان في بلده، ويتعاونون مع أنظمة بلدان أخرى لها نفس السجل الحافل بالاعتداء والعدوان على حقوق الإنسان.

وما زال مشروع وثيقة حقوق الإنسان الذي أصدره، وتحدّث عنه، الكاتب سعدي يوسف في نيسان 1987، مشروعاً للأسف، طالما أنه ما زال فكرة، أو أفكار، وتنتهك يومياً، رغم كل الموافقات والتصديقات على المعاهدات الدولية والإقليمية والعربية، لحقوق الإنسان، ما زالت بمعظمها حبراً على ورق، وغير نافذة، طالما ما زال الاعتقال على الرأي شائعاً، وما زالت الحريات مصادرة، والعمل السياسي المعارض ممنوعاً، والأحزاب السياسية المسموح لها بالحركة نسبياً، (**هي**) الأحزاب الموالية للسلطة والسلطوية.

طالما أن قانون الأحزاب السياسية، يؤجّل تارة بحجّة الأمن وتارة أخرى بحجّة حالة الحرب والمواجهة، والمسألة الوطنية، متجاهلين عمداً دور الحرية وأهميتها كضرورة عملية لنجاح أي مسعى يستهدف تحرير الوطن والارتقاء بالأمة، أي أمة ..

كانت الخلاصة محزنة، نستمع لبعض ما يجري في سجون العالم قديمه وحديثه، إلا سجون الأنظمة العربية التي فاقت كل السجون، فكم من سجن في العالم الثالث أو الشرق الأوسطي قد فاق سجن الباستيل، فخلال أربعة قرون من بنائه وحتى لحظة سقوطه لم يزره سوى 6000 سجين،

وفي ذروة الجبروت الملكي أيام لويس الرابع عشر لم يكن فيه ما يزيد عن 800 سجين، أما الذين لم يقضوا فيه أكثر من ستة أشهر فهم نصف العدد، وحين أقتحمه الثوار لتحرير السجناء، لم يكن عدد هؤلاء النزلاء يزيد عن السبعة.

قلنا لأنفسنا بأسى، نراهن، وندفع حياتنا مقابل هذا الرهان في أي وقت كان وخاصة في وقت الاستقرار، معظم العواصم العربية، إلا ما ندر، إذا لم يكن في سجونها أضعاف ما كان أيام لويس الرابع عشر، وافحصوا أي سجين خرج من تلك السجون العربية، حيّاً، كم من العاهات والعلل يحمل؟!

الاحتفال بالألفية الثالثة ... وما زال ..

حدثٌ يحصل كل ألف عام، مضت ألفيتان على الميلاد، وألفية جديدة بدأت، يحتفل العالم بذلك الحدث الذي يهم البشرية كلها. رغم أصوات المحتجين. بأن الاحتفال بدعة غريبة عنا ..!!

قال الرئيس كلينتون في كلمة وداعية: سأحتفل بالألفية مرتين وأنا رئيس للولايات المتحدة الأمريكية ..!! ونحن أيضاً احتفلنا بالألفية مرتين في نفس المكان، والغرفة ذاتها، في المهجع 2/2، الحمّام، رؤوسنا على الأرض .. نشعر أننا في عالم بلا قلب، يتابع احتفالاته كأن شيئاً لم يكن ..!!

من يعيش في قرنين يُقال عنه مُخَضرم، ومن يعيش في ألفتين، فماذا نقول عنه: ألتف .. نعم نحن ألتفنا هناك، ودّعنا الألفية الثانية في سجن تدمر، واستقبلنا الألفية الثالثة في سجن تدمر أيضاً، وقبل حلول الألفية، كان قد احتفظنا بحبتين من (البوميلو) اللذيذ وبعض البرتقال الذي جاءنا في الزيارة الأخيرة لأم مازن وغادة ومعد، وبعد التفقد، في اليوم الأخير للألفية، وقبيل سويعات من الألفية الجديدة، قشّرنا (البوميلو) وعصرنا

البرتقال في كؤوس البلاستيك، وأضفنا عليها بضع قطرات من الكحول الطبي، لكثرة ما باتت أيامنا متشابهة، غدا ذلك الكأس وكأنه خرق لأيامنا المستعملة وأحلامنا المستعملة، وغدا جديداً أمام الاستبداد العقيم للطاقة والوقت ..!

وأتحفنا نعمان عبدو، ببيتين من الشعر، كي تكتمل المفارقة، وغرقنا في نوبة من الضحك التي استباحت كل الحواجز بقوله :

ثلاث هنّ مهلكة الأنام وداعية الصحيح إلى السقام

دوام مدامةٍ ودوام وطءٍ وإدخال الطعام على الطعام

كل ما كان متاحاً لنا، هو أن نعيش في ظروف لا إنسانية ومُذلّة للنفس البشرية، كنا نواجه ذلك العار بالصبر، ورباطة الجأش، والضحك، وإطلاق النكات، وتأليف الأغاني الساخرة ... سوى الأكل غير الأكل، إلا الأكل، ماذا نفعل ..!! كان راتب شعبو يضحك كثيراً، كلما سمع مطلع قصيدة الأكل المذكورة ..

يوم ماطر في البادية

في أحد الأيام الربيعية، نقلنا إلى مهجع آخر، في باحة أخرى، كبير وسقفه عالٍ فيه عدة شرّاقات، اتخذته العصافير سكناً لها .. أغلقوا الباب علينا .. الغبار يعلو كل شيء .. ويزنّره الشبك النايلوني الذي نسجه السجناء الذين سكنوا فيه .. على اليسار الحمامات والمطبخ معاً .. وهو مكان مظلم، ومخيف، مليء بالزبالة، اتخذته القطط مأوىً لها .. أتينا إليه .. وما تزال آثار السجناء السابقين عالقة هناك، تمديدات المياه البلاستيكية والحنفيات المصنوعة من السيروم .. كوّمنا أغراضنا في آخر المهجع .. كنا سبعة .. ضائعين فيه .. ولما حان وقت التفقد، دخل الرقيب فجأة ودون إيعاز .. انطلقنا راكضين نحو صدر المهجع الداخلي الذي يبعد

أكثر من خمسين متراً من الباب. ثم اتخذنا مكاناً آخر مواجهاً للباب قرب الحمامات للتفقد .. يبدو أن ذلك المهجع كان مخصصا للأحصنة والخيول وربما للجمال .. وعندما يمشي العسكري على سطحه يرن في فضاء المهجع وقع أقدامه .. ويرجّ المهجع كله، وعندما يدقّ أو يخبط على شبك الشرّاقة .. يركض مازن تحت الشرّاقات الثلاث، لأننا لم نكن نعرف أين يقف الحارس .. ونستدلّ عليه من خلال خَياله الذي يدخل المهجع من الشرّاقات .. ينادي الشرطي .. فلا نفهم عليه شيئاً، ولا يفهم منا .. يَسبُّنا ويمشي .. و .. نضحك ..!

وفي أحد الليالي .. بدأت السماء ترعد وتبرق .. ثم سكبت السماء علينا كل مطرها، أبعدنا الفرش عن فتحات الشرّاقات وتكوّمنا في زاوية المهجع، وبعد دقائق معدودات، بدا الماء يتسرّب إلى المهجع من كل الزوايا والجدران، رفعنا الأغراض على الشبك البلاستيكي وتكوّمنا فوق الفرش التي جمعنا معا في وسط المهجع .. السماء تمطر بغزارة، تحول المهجع إلى بركة ماء، نلفّ أجسادنا بالبطانيات واقفين كما الأشجار، وقطرات الماء تقطر منا .. تلك الليلة لا تُنسى في تلك « الجهنّم « التي لا يكتمل فيها إلا الجنون .. ويظلّ هناك إمكانية أكبر للجنون .. تأقلمنا في كل المهاجع التي مررنا بها من مهجع المستوصف، وجديد ظهره، وجديد حنفية، والحمّام، وأخيراً مهجع الجمال، الذي تلقينا فيه كمية من أشعة الشمس والتهوية الجيدة والمساحة المناسبة للمشي .. ساعات وساعات .. وخطوات طويلة، أكثر من 30 خطوة .. كنا نشعر هناك، وفي ذلك المهجع، بأننا وحيدين على تلك الأرض وكأننا في كوكب مهجور لا أحد فيها سوانا .. أحصينا عدد نزلائه من التقسيمات المطبوعة بالسنتيمتر أسفل الجدران بالمئات ..

أعادونا إلى مهجع الحمّام 2/2، عندما انتهت أعمال الإصلاح، والتمديدات الصحية .. فوجدنا أن التغيير الوحيد الذي حصل في

مهجعنا، أنهم أضافوا حنفية جديدة .. عادت أيامنا إلى سابق عهدها من رتابة وقلق وانتظار .. حتى كان يوم العاشر من حزيران ..

سمعنا صوت الآذان، وتلاه صوت القرآن الآتي من مآذن المدينة، ساعة .. ساعتان .. وما زال مستمراً .. نمنا وصحونا .. واستمرّ صوت القرآن .. قال عمار رزق : « يبدو أن زعيم المدينة قد توفي « كان كل شيء مختلفاً .. حركات الشرطة السريعة والوجوم .. الحراس متسمرون في محارسهم، وجعبتهم، وصمتهم ..!! تسرّب الخوف إلينا من صمتهم .. ومن خوفنا ازددنا خوفاً .. كل شيء ينذر بأن هناك حدث كبير، ربما « انقلاب « وأخذنا نفسرّ كل شيء وسط الخوف والصمت .. وحكاية لّم الصور، والتفسيرات والتحليلات التي تذهب للمجهول .. كانت هتافات الأطفال غير مفهومة تماماً، رغم ما نقله مازن بأنه سمع هتافات .. بالروح والدم .. نفديك .. يا .. وعزز ذلك فكرة « الانقلاب «.

وبعد أسبوع عصيب من التوتر والقلق والانتظار .. جاءت الجريدة أخيراً، واجتمعنا حولها، وعرفنا أننا قد ذهبنا بعيداً في تخيلاتنا .. وأن الأمر يتعلق بوفاة حافظ الأسد، كل ما أذكره الآن، أننا صمتنا .. وصمتنا ..

في أواسط الشهر السابع، افتح باب المهجع .. ونادى الرقيب أول على : آرام كربيت، وطلبوا من مازن أن يجهّزه ويطمّشه .. دقائق ارتباك .. آرام، الذي بقي على نهاية حكمه أشهر وأيام .. أهله سافروا إلى السويد، وهو الوحيد الذي يقضي حكماً، بثلاثة عشر عاماً .. الرقيب في الخارج يستعجلنا .. وضع طمّاشته على جبينه .. وبشكير وبعض الغيارات .. ودّعنا .. وذهب..

13

إذا لم تجد مكاناً فَعُدْ

كان خروج آرام وحيداً، إشارة محبطة، رغم الفرح بخروجه من ذلك «الجحيم». آرام الذي يخرج وهو يعلم أنه سيكمل مشوار الخروج، لأن أهله قد سافروا جميعاً إلى السويد .. و لم يبق من العائلة «إلاه»... فكان الوطن مجسداً بذلك المكان .. كان يقول لنا : عندما أخرج لا أعرف إلى أين أذهب، طالما أهلي مهاجرون جميعاً، وأنا الوحيد هنا .. كنا نمزح معه: «إذا لم تجد مكاناً فَعُدْ إلينا...»

جعلني خروجه المفاجئ في طليعة قائمة المرشحين .. شهور أربعة على انتهاء الحكم المبرم .. وانتقلت الأنظار إليّ .. وبدأ الشباب يحملونني توصياتهم العامة والخاصة .. وضعت برنامج صباحي لحفظ القصائد الزجلية التي ألّفها أبو يوسف إلى أفراد أسرته فرداً فرداً .. دون أن ينسى هيام وعصام المسافران .. وكنت مساءً أتلو ما حفظته في النهار .. ثم كتبتها على أوراق علب الدخان بقلم الرصاص الوحيد .. أما مازن، كان يقول لي بطريقته الصارمة : بعد أن يخرج آخر الشباب من هنا، عمار وعمر بعد أبو يوسف ثم نعمان الذي أصبح في دمشق للعلاج، يبقى لدي

ثلاث سنوات .. أصبحُ وحيداً، كان همّه منصباً على السعي من أجل النقل إلى العاصمة، وأن تتركّز الجهود على ذلك، وإذا باءت الجهود، فالنقل إلى « الباحة الخامسة » على كل الأحوال فأمامه خمس سنوات .. قضى عشر سنوات .. وما زالت خمسة أخرى أمامه فقط ..

أربعة أشهر من خروج آرام وتاريخ انتهاء مدة حكمي المبرم .. أربعة أشهر .. مسكونة بالقلق والخوف بما نخشاه .. كنت أقول لهم : سآخذكم معي، ولن أذهب بدونكم .. كانت همهماتهم وحركات أعينهم تقول : أعلل نفسي بالآمال ..

هذا أيضاً أحترق

أسعفتني الذاكرة، في سرد تفاصيل قصة قصيرة للكاتب حسيب كيالي، عنوانها « وهذا أيضاً أحترق » في مجموعة قصصية تُدعى « المطارد » ... يبدو أن المرحوم حسيب قد زار هذا المكان، رغم أنه توفي من زمان، فكأنه قد كتب عنا .. فأوجه التشابه لا حصر لها، كأنه يتحدث الآن عنا، رغم أنه يقول قد كتبها في عام 1959، يقول في قصته : « اعتبرونا أخطر العناصر التي تهدد السلطان، فساقونا إلى تدمر .. ويضيف : هل سرية التأديب في مركز تدمر مركز سياحي، أم فترة للاستشفاء بالمياه الكبريتية ..؟ »

وكانوا يعانون من انتشار القمل بينهم، وينشغلون به، حتى قرر سعيدحورانية الكاتب القصير الدينامي أن تتم التفلية اليومية في الساعة العاشرة صباحاً .. كان سعيد يظن نفسه أشد أهل المهجع نظافة فلم يعثر سوى على خمس وعشرين قملة في قميصه .. فاتخذ قراره الحازم بإجراء التفلية اليومية في الساعة العاشرة من صباح كل يوم ..

وفي أحد الأيام دخل عليهم أحد الضباط، وأخذهم إلى حلاق ينتظرهم، ثم إلى الحمّام، يمكن أن يكون نفس المكان الذي نقيم به، فمهجعنا 2/2

كان جزءاً من الحمّام القديم، تم فصله لاحقاً .. يكلف استخراج لتر الماء هناك مئات الليرات، ومع ذلك ينسفح الماء يومياً طوال الليل .. ويزيد ذلك من توترنا وقلقنا وأرقنا .. ثم نقلوهم بسيارة .. انعطفت يساراً .. معناها إلى دمشق .. تبادلوا النظرات التي خلصت إلى أن ليكن ما يكون .. أن تُعدم وأنت حليق اللحية خير من أن تموت كأنك عصفور .. ها إذن سيعدموننا في ساحة المرجة في الشام .. طز استوى عندنا الماء والخشب .. وتفتق عليهم الضحك،مسألة غريبة تماماً .. أنت ومصيرك المجهول وقلقك .. ومع ذلك يتفتق عليك الضحك العملي. يضحك الشباب .. وأكمل سرد القصة :

ها هي دمشق .. شارع حلب، شارع بغداد، السبع بحرات ساحة المحافظة، والآن وصلنا .. تفضلوا أهلاً وسهلاً طق احتراماتي .. وقادوهم إلى غرفة ليست فخمة جداً ولكنها مريحة، دخلوا وإذا بسلطان ذلك الزمان واقف وراء مكتبه ومدَّ يده الجسيمة وصافحهم بقوة وقال : انظروا يا فتيان، أنتم كنتم معتقلين لاختلاف في وجهات النظر بينكم وبين السلطة، أنتم أولاد هذا الوطن، لستم أعداءه، ولكن وجهتي نظرنا، أنتم ونحن مختلفان وأنتم الآن أحرار، لقد احتجزناكم من غير أن يصدر عنكم عمل مؤذٍ مباشر .. لقد احتجزناكم إذا جاز التعبير وقائياً، والآن، أنتم، أكرر، أحرار، فأذهبوا واعلموا أن الوطن إذا أساء إلى أحد أبنائه مرة فما ذلك إلا نوع من تأديب الأب لأبنه .. وكان بينهم عبد الكريم الطرطوسي ويبدو أنه كان حشري قال للسلطان :

ـ عظمة السلطان، هل أستطيع أن مناقشتك؟ فشعّ الغضب والدهشة في وجه السلطان في آن معاً وقال : ولك حبيبي لا تناقشني ولا أناقشك، أنا أقول لكم اذهبوا فأنتم أحرار.

قال عبد الكريم : لا أنا أريد .. كان إسماعيل يشد عبد الكريم من كمّه ويقول له :

- لفها يا عبد، ولك عبد لفها .. وهو ينتر كمّه ويقول محتداً :

- دعني أريد مناقشته، أن أناقشه، نحن وطنيون .. وقطع السلطان .. ومدّ يده مرة أخرى وصافحهم في حرارة وكان يدفشهم نحو الباب دفشاً .. وما أن نزلوا الدرج حتى أصبحوا في الشارع لا مخبر ورائهم، ولا أحد يضربهم، ولا سجّان يسبهم ويقول لهم «يا جواسيس».

صمت الشباب، لكن أعينهم لم تصمت، كما حصل مع إسماعيل في قصة حسيب كيالي .. ظلت عيناه تغزلان في وقيبهما في انتظار وهو لا يرفهما ..

قالوا: إلى أين تريد أن تصل بنا من بهذه القصة؟

قلت لهم نفس العبارة التي قالها إسماعيل في تلك القصة : كان غفوراً .. أريد أن أدع فرصة تنكلون بها عن رهانكم الباهظ.

قالوا : لم نفهم .. قلت لهم مصابراً : إذن أعلموا أيها البشر البغو واغفروا لي لأنني أستعمل هذا النعت، أيام ذلك الزمان قد قاموا بنشاطات معادية ومع ذلك عاملهم تلك المعاملة الغفور ..! أما الآن فماذا فعلنا نحن جميعاً ضد النظام القائم؟ إن الاضطهاد والتعذيب وكبت الحريات تكنولوجيا مثلها مثل أي تكنولوجيا أخرى، ما تفتأ تتطور،قد تجد خيطاً غير منظور يربط بين العهود الاتوقراطية التي مرت على هذه المملكة، ولكن الأساليب تتطور وأسلوب عام 1959 يختلف من حيث الزخم والتكنيك والتطلعات اختلافاً عميقاً عما سبقه من عهودٍ بعيدة ..

وأجرى الشباب بعض المقارنات بين شخصيات قصة حسيب والشباب الذين خرج البعض منهم .. فكم الشبه كبير بين أبو عبدو .. والحارث النبهان الذي كان يحاول أن يجعل جحيم القهر والمهانة التي كنا نحياها مشروع ابتسام، عندما كان الحارث يدخل إلى المهجع بعد كل دولاب، ولقد تعرض للكثير منها، مبتسماً ..وعندما لم تكن الابتسامة

كافية لتغيير الجو في المهجع كان يحمل صينية بلاستيك .. تعلوها كؤوس البلاستيك المترعة بالماء ويقوم ببعض الحركات التي تنزع الابتسامة منا والضحك .. مرة شاهده الحرس فعلّمه .. ونال دولاباً في الصباح التالي .. و لم تمنعه الدواليب من خفة ظله .. وممارسة ذلك الدور ..

أصبحنا نقضي أيامنا كما لو أننا ننتظر بعضنا في غرف التعذيب، نصيخ السمع، ونصيخ القلب، ورغبة في أن نكسر جو القهر والعجز الذي قبض على قلوبنا .. فللمحكومين بجرائم شنيعة حقاً في التنفس ونحن ليس لنا أي حق .. آلاف مؤلفة من المرات حملت زوجة الراعي الزوادة إلى زوجها وراء السجن ونحن لا زوادة، ولا قراءة، ولا كتاب، لا تسميع كلمات للبنات، لا حياة .. وارتفع نحيبٌ في قرارة أرواحنا .. ساعات النهار .. وساعات الليل .. تتطاول .. لأنه صار بوسعنا الآن أن نحلم أننا نوشك أن نرتفع إلى مرتبة الدوري الذي يملك أن ينتقل من السجن إلى الكثبان المحيطة، حيث الحرية.

الدخول حزين كالموت .. والخروج فرح كالولادة

ونحن نستدير ونحن نتحرك، كنا نخلف أجزاءاً أساسية من الحياة من قلوبنا، كنا نمشي ونتلفت، كنا نمشي بصعوبة، ولا نعرف هل نواصل أم نتوقف؟ وهل نترك وراءنا نزلاء ونمضي؟ فهذا السجن المنسي النائي البعيد إلى أقصى حد، ومع ذلك لا يمكن اقتلاعنا بهذه السهولة، صحيح أن الكراهية التي نكنّها للمكان لا تماثلها أية كراهية، لكن الإنسان لا يمكن أن يترك ذكرياته، جزءاً من تاريخه وحياته ويمضي هكذا ...!

كان مساء 2000/11/15 مساءً مختلفاً .. وقف الرقيب على الباب يتلو أسماءنا الخمسة .. جمعنا أشياءنا الصغيرة .. فرحة لا يوازيها فرحة أخرى .. أن نتحرك معاً نحو الحرية .. أن نصبح دوري ..

استدرتُ نحو مازن شمسين، وقلت له : مبروك .. ربحت الرهان،

وعليكم أن تفوا بوعدكم .. ربحت الخروف، كان الشرط بيننا، منذ أن وطأنا تلك الجهنم أن من يأخذنا معه فرداً أو مجموعة، يستحق (عزيمة)

من المجموعة التي يأخذها معه، وإلا يكون عليه أن (يعزم) الشباب جميعاً على نفقته بعد لقاءنا في الخارج (الحرية) .. قبل أربعة عشر يوماً من انتهاء مدة حكمي، نظرياً في 11/30 أقف على الدور بعد خروج آرام .. طار النوم من أعيننا، ونهضنا نضبّ أغراضنا .. ها هو حلم الخروج يتحقق .. والفرحة مضاعفة نغلق باب المهجع 2/2 وراءنا .. ولا أحد .. الخروج مثل فرح الولادة .. كتبت بالقلم على الباب من الداخل تحت قائمة سرية لمن مرَّ في ذلك المهجع، عبارة ح ع ش / و م س .. (حزب العمل الشيوعي / والمكتب السياسي) .. آخر المعتقلين عام 2000 .

التجمع في الباحة الثالثة .. ما زال هناك نزلاء في المهاجع الأخرى .. يتناهى إلينا دبيب حزنهم .. ورغم أننا على وشك الخروج، تمّ تفتيشنا وتفتيش الأغراض .. وخلع الثياب حتى « الكيلوت « والقيام بحركتي أمان .. أذاب فرح الخروج تلك الأهانات .. وفي الساعة العاشرة من صباح 2000/11/16 تحلقنا نصف دائرة، وقف العقيد رئيس السجن موجهاً خطابه نحونا :

« مبروك .. لقد عفا الرئيس عنكم ... ارموا الطماشات على الأرض، من الآن فصاعداً لستم بحاجة إليها .. فالوطن للجميع .. ترددنا كثيراً في رميها، وكانت ترمى، وبغضب تُنزع عن العيون، وأصوات ارتطامها بالأرض، مئات الطماشات .. ثم أفسح مدير السجن المجال للحديث بعد أن أنهى خطبته العصماء .. وقف مازن وطلب الأذن بالكلام .. فطلب من رئيس السجن أن يُحسنْ معاملة من بقي من السجناء الذين لم يشملهم العفو ..! كنا نشعر بهم .. يلتصقون بجدران المهاجع المجاورة، وبجدران قلوبنا، يستمعون إلى خطاب «الحرية» وهم مُستثنون، هو الإحساس الذي لا يمكن أن يعرفه إلا من مرّ به وفي ذلك العا لم .. أنه يشبه حكم الإعدام .. مع وقف التنفيذ ...!

وبدأنا التحرك بطيئاً نحو مخرج السجن، حيث الباصات والبولمانات تقف منتظرة ..نجرجر أمتعتنا ونمشي الهوينا، متلاحمين، نتدافع بالمناكب .. كأن الرتل واقف في مكانه .. ما زال الوقت ثقيلاً وبطيئاً وليس حيادياً ..

وكلما تقدمنا بضع خطوات، نستدير ونحن نتحرك، لأننا خلّفنا أجزاء أساسية من حياتنا، من قلوبنا، كنا نمشي ونتلفت .. منهكين نمرّ من سنتيمتر إلى آخر، ومن باحة إلى أخرى .. والرقباء خلفنا وأمامنا .. كانت النظرات بيننا حوارات .. عتب .. إشفاق .. كنا نشفق عليهم، لأن الخدمة في تلك الرقعة المجنونة، لا تستثني أحداً سجناء وسجانين .. كنا نقول لبعضنا : هذا هو « شقيدوح « وذاك هو « الأصفر « تلك هي الأسماء التي أطلقناها على الرقباء الذين نعرفهم من إقامتنا في الباحة الخامسة، ونعرفهم من أصواتهم ووقع خطاهم .. كنا في آخر الرتل، متلاحمين، نخشى أن نضيّع بعضنا بعضاً في زحام التدافع للإسراع في الخروج .. الذي مارسه الجميع هناك .. ما زال الخوف من أن يغيّروا رأيهم، أن يحصل المستحيل .. فهناك ليس ثمة مستحيل .. وبطريقة أقرب إلى الفوضى، رغم المحاولات المشددة لأن نكون نظاميين، حملنا أشياءنا وبدأنا نغادر الباحة إلى البوابة العريضة .. والصعود .. والتفاتة الأمان .. رغم كراهيتي لذلك المكان التي لا تماثلها كراهية .. فقد شعرت أني قد تركت جزءاً من قلبي هناك، رغم كل ما فيه من قصص رعب وكراهية لا نهاية لها ..

وقبل أن يتحرك الباص، لأنه كان الباص الأخير في الرتل .. نلتقط تفاصيل السجن الذي التهمنا سنين .. نغادره .. وأعيننا إليه تطير .. نحاول أن نعب أكثر المشاهد في لحظات الخروج .. حتى خَفيَتْ علينا طلوله .. ومذ خفيت عنا الطلول، تَلفت القلب ..!

وقف أهل المدينة الصحراوية على الأرصفة، وفي داخل منازلهم، وأطلّوا من الشبابيك يلوحون لنا ونلوح لهم .. نتملى الوجوه الآدمية والأشياء والآثار

التي لم نوقف فيها عند دخولنا، لأننا كنا في جنازة الموت .. والآن نخرج منها في ولادة الفرح، نمسح الآثار الممتدّة على مسافة تقارب 6كم2 .. وأخذت أسأل نفسي أين معبد بل .. وقوس النصر .. والمسرح والحمّامات .. والشارع الطويل ومجلس الشيوخ؟ كي أقول إني زرتها كلها .. كانت قلعة فخر الدين المعني رابضة في مكانها من القرن السابع عشر، تحرس البادية ونبع أفقا .. وأكملتُ الحديث لنفسي : أما زال بل،يرحبول،وأغلبول يتمتعون بشعبية، ويعرفهم أهل تدمر، أم حلّ مكان المعبود الأعلى (بل) آلهات أخرى .. أم ..؟

وأين بيوت الأبدية، المدافن الملكية والعادية، التي أبرزَ التدمريون براعة مميّزة في نحتها، وكانت أبعد من أن تكون مقابر، حيث كانت تزين بالورود وأماكن للجلوس .. كان يراودني، ويراود الجميع،أحياناًهناك، بأننا نقيم في تلك البيوت التي بنيت في القرن الأول قبل الميلاد .. لكن من دون ورود ..

اختلطنا مع السجناء الآخرين .. اختلط الشيوعيون بالأخوان وبعث العراق في باص واحد .. ما زال الخوف والإحساس بعدم النجاة كاملاً، طاغياً .. القلوب مليئة بالجروح .. وهل يمكن أن يصبح السجن ذكرى .. مجرد ذكرى .. وهل تلك الدموع التي تذرفها عيون السجناء دموع فرح أم حزن .. أم فرح محزون؟

الطريق طويل 200كم بيننا ودمشق، والباص ينهب الطريق الذي تحيط به بادية، أو صحراء مليئة بالحجارة والتلال الجرداء .. ظهرت بعض الأغنام على الطريق وبعض الرعاة .. وخزان مياه .. علامات حياة .. سلاماً... سلاماً...

14

أتى أيلول والخريف...
وأين دمشق وفل دمشق؟!

أتلفنا الشوق وملاحقة الآرمات .. ها هي (الضمير) والأرض الحمراء والقباب .. وصلنا إلى اتوستراد حمص ـ دمشق، ها هي (عدرا)، التي غادرناها ومازال لنا فيها أحباب وأصدقاء وأجزاء من قلوبنا وحياتنا ..!

عبرنا دمشق نتزاحم على الشبابيك، نلتهم الشوارع، والبنايات والبيوت والأرصفة .. حتى فرع التحقيق العسكري .. الذي احتشدنا فيه مئات من السجناء من كافة المحافظات .. كدنا نختنق .. بحثنا عن السجناء الذين نعرفهم، وتمكنت من اللقاء بأبي إبراهيم، وعمر معاذ .. من التيار الإسلامي.

مساءً وبعد أن سجلوا أسماءنا .. نقلونا إلى فرع فلسطين .. حيث كان ينتظرنا مجموعة الرفاق القادمين من سجن صيدنايا .. اللقاء بهم بعد عدة سنوات من الغياب القسري لنا جميعاً .. ثم كان اللقاء برئيس الفرع ومجموعة من الضباط الأمنيين .. استقبلونا على دفعتين .. وبدأ رئيس الفرع كلامه :

إنكم ضحايا مرحلة سابقة .. وحدّدنا نحن الذين نُقلنا إلى سجن تدمر بالاسم .. وأضاف .. لا تحكموا علينا الآن .. اخرجوا .. فالوطن للجميع، كلنا نبحر في قارب واحد .. وطلب منا الحديث بالدور ..

جاء دوري، أنا الحشري كعبد الكريم الطرطوسي في قصة حسيب كيالي .. قلت لرئيس الفرع والضباط الآخرين .. نحن خارجون من «جهنم» إذا كان هناك أي شيء جديد، ينبغي أن يبدأ بالإنسان .. ويكون ذلك بإنهاء حالة الطوارئ وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، ليس نحن فقط .. بل كل السجناء .. وإلغاء المحاكم الاستثنائية، ورد الاعتبار للمظلومين، عند ذلك يمكن أن يكون السجن ذكرى مجرد ذكرى ...

قاطعني رئيس الفرع قائلاً : أنت تدافع عن الإخوان؟

قلت له : إنني أدافع عن الإنسان ..

وقف الضباط ومدوا أيديهم وودّعونا بحرارة .. وصعدنا في الميكرو الذي كان ينتظرنا وأخذ ينزلنا كل في مكان .. وإذا الأحباب كل في طريق .. نزلت أنا وأبو يوسف في البرامكة وأخذنا سيارة أجرة إلى باب توما، إلى منزل شقيقه أبو جهاد ... اختلط الضحك بالبكاء .. والدموع .. والصراخ .. امتلأ البيت بالأحباب .. ثم وضعوا أمامنا مائدة ملأى بكل ما لذ وطاب .. وزّعت أم جهاد الأطباق بعناية فائقة .. خجلتُ كثيراً عندما اكتشفوا جميعاً أنني أتناول الطعام من الصحن الوحيد الذي أمامي، مبتعداً عن كل ما هو ساخن، لأن سنين مضت لم أضع كأس شاي ساخن على شفاهي فتكوّمت الصحون أمامي. أوصلنا أبو جهاد في سيارته إلى صيدنايا، كانت الزغاريد والورود .. والضحكات .. في انتظارنا .. عندما وصلنا تعلقت كاترين ورجاء وهند بأبي يوسف، تقبيلاً وضماً وبكاءً وصراخاً .. حتى أنهنّ حرمن أم يوسف من السلام عليه في الساعة الأولى للقاء ..

ولمّا هدأت كاترين قليلاً، اتصلتْ بأهلي في بانياس .. قلت لها : لا أريد الكلام، تركتهم بلا هاتف في القرية .. لن يعرفونني على الهاتف .. لأن الغياب الذي دام كل هذه السنين .. يحتمل بعض الأيام .. أصرّتْ كاترين على الاتصال .. كان على الطرف الآخر صوت أبي الحزين .. وأمي وأعمامي، ينتظرون .. كنت أخبّىء عودتي مفاجأة بعد ثلاثة عشر عاماً مضت على آخر لقاء بوالدتي .. التي فجعت بموت أخي .. فلما سمعت أنني خرجت بعد كل هذا الغياب .. هجم غياب أخي عليها .. كانت تنظر .. وكانوا ينظرون إلى صورة أخي المطبوعة في كل شيء في ذلك البيت العتيق .. على الجدران والعتبة .. والوجوه ..

كان خروجي نسياناً لي وذاكرة مفتوحة على أخي .. كان الجميع يقول .. كانت الدموع تقول .. وتشير إلى صورته المحفورة في جدار الصالون .. ياريته قد سُجن ..

كنت في البولمان على طريق دمشق- حمص آنذاك وحيداً بعد أن تفرّق الأحباب، كل في مكان .. كنت منهمكاً في تحضير الأجوبة الصغيرة على الأسئلة الكبيرة التي أتوقع أن يوجهها أهلي وأصدقائي ورفاقي وحبيبتي..

لمّا اعتُقلت في 1992/11/30 على موقف الغساني في القصاع بدمشق .. كانت معي الرفيقة الدكتورة تهامة معروف .. كنت قادماً من حمص .. ولمّا خرجت قطعت نفس الطريق عائداً إلى حمص أولاً .. التي اشتقت إليها، على شوارعها، وناسها ورفاقي فيها .. والأُسر الكريمة التي احتضنتني، احتضنتنا أثناء التخفي الأمهات الرائعات .. أم حبيب والحجة أم محمد وأم جميل .. و.. و .. و ..

وإلى حبيبتي التي انقطعت أخبارها بعد أن نُقلنا إلى سجن تدمر .. ثلاث سنوات ونيف .. متحفزاً في البولمان، الذي يتسلى على الطريق، وأنا نصف جالس أتابع الآرمات .. والمسافات .. كم بقي من قلبي .. وكم ..

صعدت في أول سيارة أجرة، إلى حي الأرمن قرب ثانوية محسن عباس، أبحث عن بينلوبتي، ومنزلها الذي لم أدخله أثناء التخفي ..

ربما كانت بينلوبي مضطرة خلال الصبر والانتظار مع الثقة إلى فك النسيج الذي تجدل منه البساط والسجادة .. وأن بينلوبتي كانت على صواب، فالأهوال التي لاقاها عوليس على صعوبتها وتعقيدها وكثرتها ما قتلت فيه رغبة التواصل والمبادأة ليس فقط للعودة سالماً، بل كذلك ليعود إلى الحبيبة، وأن الحبيبة ما كانت أميرة الهوى بقدر ما كانت أسيرة الآمال ..

لم تكتمل الحكاية

وحكايتنا لم تك زمناً ميتاً...

الفهرست

مطر الغياب

صفحات من أيام الملاحقة والاعتقال والسجن

نص إبداعي توثيقي، مرآة لحقبة عصيبة من تاريخ سوية الحديث، مسكوت عنها بفعل ماكينة الصمت الذي يأخذ شكل قوة العادة، وركام الأضاليل في زحمة الخطب الديماغوجية. لا يعكس مطر الغياب عذابات صفوة من المثقفين المعزولين عن شعبهم وهموم وطنهم، بل يتسلل إلى تفاصيل مغيرة ولصيقة بهموم الناس على امتداد سورية وقلق محبيها إلى مصائرها الحائرة أمام سياسات لا تشبه تاريخها الوطني العريق ولا تأبه لأهمية موقعها الذي يتعدى الجغرافيا ليطال التاريخ والثقافة ومجتمعها المتعدد والغني.

مطر الغياب مدخل أدبي وتوثيقي لفهم ما آلت إليه مصائر سورية اليوم : ثورة وانتفاضة مقهورين، فحربا، فكارثة وطنية وانسانية، تتعدى تخوم الوطن إلى مستويات عليا من التدويل لم يسبق لها مثيل.

تلقي صفحات الكتاب "هموم القمع" الثمانيني من القرن المنصرم وإضاءة من جملة إضاءات على واقع السجون وخاصة سجن تدمر الصحراوي الرهيب، من خلال تجربة الكاتب ومعاناته التي أمضى فيها سنوات اعتقاله، وأجواء المحاكمات المأساوية ـ الهزلية في مجرياتها وأحكامها القاسية التي لا تتناسب وطبيعة "الجرم" الذي اقترفته تلك القوى الحية والحريصة على مستقبل سورية وتقدمها.

مع ذلك عجز القمع عن إلغاء توق السوريين والسوريات إلى الحرية، وعجز عن إلغاء حلمهم بالعدالة والديموقراطية، ودولة القانون وإنهاء الفساد

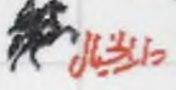
في مطر الغياب كلمة سر هذا العجز، السر الذائع الصيت: ضرورة، وإرادة التغيير.

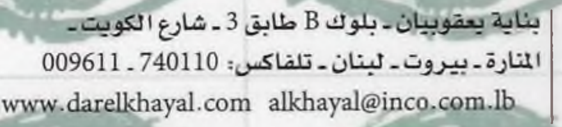
الناشر

صمم الغلاف: يوسف عبدلكي



9789953823548




بناية يعقوبيان ـ بلوك B طابق 3 ـ شارع الكويت ـ
المنارة ـ بيروت ـ لبنان ـ تلفاكس: 740110 ـ 009611
www.darelkhayal.com alkhayal@inco.com.lb